
KAYED ALRKIBAT
رواية
أُرجُوان
الدكتور
كايد الركيبات
دار الأيام
أمة تقرأ .. أمة تتقدم

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2025/9/5492)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب

اسم الكتاب: أرجوان:رواية

تأليف: الركيبات، كايد كريم حمد

بيانات النشر: عمان: دار الأيام للنشر والتوزيع، 2025

الوصف المادي: 206صفحة

رقم التصنيف: 813.03

الواصفات: الروايات العربية/ الأدب العربي/ العصر الحديث

الطبعة: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية اخرى

ISBN:978-9923-52-277-6

2026

دار الايام للنشر والتوزيع
عمان - ش. الملك حسين - وسط البلد اول طلعة جبل الحسين - بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص ب925636 - العبدلي 11190 الأردن
هاتف: 4633362 - 6 - 00962
جوال: 707630 - 795 - 00962 - 509925 - 797 - 00962
E- mail: salah_tellawi@yahoo. com
alayamdar@gmail. com

دار الأيام للنشر والتوزيع

رواية

أُرْجُوان

الدكتور

كايد الركيبات

دار الأيام
دار الأيام للنشر والتوزيع

عزيزي، عزيزتي:

أجمل العلاقات في الحياة، تلك التي لم نخطط لها، لكنها وقعت في مكانها الصحيح.

ليست كل المشاعر التي تُعاش بين اثنين تحتاج إلى ضوء، هناك مشاعر يجب أن تُترك في عتمتها، لا خوفاً منها، بل احتراماً لسرّها.

لنتفق قبل قراءة رواية أُرْجُوان على أن الحياة نعمة عظيمة، وأن الدنيا تضحك، لا تحزن أبداً.

فل نتأمل، فالتأمل زاد الحاضر، وجسر إلى استشراف المستقبل.

آصف

أوتار الروح

في صــباح يوم جميل، كنت في زيارة لمدينة عمان؛ لأودع كاســاندرا التي قررت للمرة الثانية إنهاء عملها في الأردن والعودة إلى أمريكا، كان موعد رحلتها الساعة السادسة مساءً، قررتُ قبل الالتقاء بها زيارة مكتبة العاصمة، استقبلني مديرها السيد فريد بابتسامة وترحاب، وهمس قائلاً: وقّعنا أمس عقداً لنشـر رواية جديدة. اســمها "ابن برخيا"، لكاتبة تعمل معك في المؤسسة نفسها، تُوقّع أعمالها باسم: "أُرْجُوان".

لم أقل شيئاً!

ابتسمت ابتسامة من سمع اعترافاً انتظره طويلاً دون أن يطلبه.

أطلعني على الإهداء: "لمن جعل سيرتي عطراً".

أنهيت زيارتي للمكتبة سريعاً.

اتصلت بكاساندرا أخبرها بوصولي إلى عمان.

مرحباً بك، أنتظرك في شقتي، أرجو أن تحضر، حتى أنقل حقائبي في سيارتك.

أنا قادم.

التقينا، لقاء الأصدقاء.

قررنا أن نقضـــي ســـاعة في ذلك المقهى الذي التقينا فيه أول مرة قبل ثلاثة أعوام ونصـــف، جلســـنا، احتســـينا القهوة وأخبرتها أن ابنة الرجل الذي ترجم مخطوطة مذكرات ماسـنر باشـا، أنهت كتابة روايتها الأولى، وهي قيد الطباعة والنشر.

بلا تردد طلبت مني كاساندرا الاتصال بـــ "انتماء"، وأخذ موافقتها على أن تســـلمها نســـخة من روايتها حتى تترجمها إلى اللغة الإنجليزية وتنشـرها في الدار نفسـها التي تعاملت معها يوم نشـرت مذكرات ماسـنر باشا.

كانت فرصة من السماء أن اتصل بأُرْجُوان.

اتصلت بها، ألو. مساء الخير عزيزتي أُرْجُوان.

مساء الخير أستاذ آصف.

كيف حالك.

الحمد لله.

أبارك لكِ عملك الروائي الذي أنجزته.

بارك الله فيك. كنتُ متأكدة أن الأستاذ فريد سيخبرك.

نعم، أخبرني، ولكن لدي مفاجأة لك.

ماذا؟ تفضل.

تذكرين عندما حصلتُ على مذكرات ماسنر باشا، وتكفل والدك ـ رحمه الله ـ بترجمتها.

بلى. أتذكر، لماذا خطر ببالك ذلك الأمر.

الحقيقة أن ابنة حفيدة ماسنر باشا التي منحتني نسخة المذكرات تطلب منك الموافقة على تزويدها بنسخة من روايتك لتترجمها إلى اللغة الإنجليزية وتساعدك على نشرها.

يسعدني هذا الخبر، وأكون شاكرة لها إن فعلت ذلك.

أرجو أن ترسلي نسخة ملف الرواية.

الآن أرسله. وأنا شاكرة لك هذه المبادرة.

ما إن تبادلنا التحيات وأنهينا المكالمة حتى رأيت في عيون كاساندرا ما لم تقله الشفاه!

كاساندرا، رفيقة النادي التي أتاحت لي صداقتها، وبسطت لي فرصة اللقاء والحوار، كان يمكن أن تكون باباً مفتوحاً لو أردت الانفلات من ضوابطي وأخلاقي، لكن لم أفعل، كنت وفياً لما تربيت عليه من قيم،

متماسـكـًا أمام نوازع النفس، حاكمـًا لسـلوكي بما ورثته عن والدي من تقوى الحضور.

صـداقة كاسـاندرا جعلتني أدرك الفرق بين الإعجاب العابث والانشـداد الصـادق، وجودها في حياتي علمني كيف أتعامل مع الأشخاص في حياتي، من عليّ تجاوزه ومن أريده أن يبقى.

وصلني على الواتساب ملف الرواية، وأرسلته إلى هاتف كاساندرا.

بعد وقت قصير من رحيل كاساندرا أرسلت لي رسالة تطلب مني أن أزودها بتفويض قانوني من انتماء يجيز لها التعاقد على نشـر روايتها باللغة الإنجليزية، وقالت: إن دار النشر تصرفت في عنوان الرواية ليتوافق مع إمكاناتها التسويقية، وستنشرها تحت عنوان "Strings of the Soul" أوتار الروح، وطلبت أن يتضمن التفويض هذا العنوان.

بين يديّ

كان يوماً ممطراً، من أيام شهر شباط، وهذه المدينة الجميلة لا تحتمل دموع السماء، خرجتُ من مبنى البنك راكضاً في الشارع حتى أصل إلى ذلك الجسر الذي يلتوي عنقه كعنق بعير ليفرق الطريق بين وسط البلد ونفق الحدادة، سأقف تحته حتى تمر هذه السحابة الماطرة، عسى بعد هذا العناء أستطيع الوصول إلى وسط البلد، في ذلك الكشك على قارعة الطريق بالقرب من "سبيل الحوريات" رأيت كتاباً أعجبني عنوانه (أهداني باقة زهور).

وقتها لم يحفزني الفضول على تقليب صفحاته، رأيته بطرف عيني وتركته، لكن لم تغب صورته عن مخيلتي منذ تلك اللحظة، قررت العودة إلى ذلك الكشك لأشتريه، حين وصلت لم أره في مكانه الذي عهدته به، سألت البائع عنه، فأخبرني أنه باعه منذ يومين.

قال: اشتراه بائع الترمس، صاحب تلك العربة، قال لي ساخراً، أنه من هواة المطالعة!

ذهبت باتجاهه، فهذا البائع ما يعني له الكتاب شيئاً، غير تمزيق صفحاته ليعمل منها طرابيش يضع فيها الترمس.

إن شعر بحاجتي إلى هذا الكتاب ربما سيغالي في ثمنه، أو يمتنع عن بيعه، لكن سأحاول معه وأساومه عليه بطريقة غير مباشرة. سأشترى منه دون أن اعير الكتاب اهتماماً.

مرحباً: بكم الترمس؟

عشرة قروش.

أعطني واحدة.

تفضل.

بماذا تلفها؟

بورق هذا الكتاب.

كتاب!

نعم. ثمن الطرد الواحد من ورق التغليف ثلاثة دنانير فيه ثلاثمائة ورقة، وهذا الكتاب ثلاثمائة ورقة بدينارين، قرأت الورقات التي مزقتها منه، وبذلك استفدت القراءة وفرق السعر.

لو اعطيك ثلاثة دنانير تعطيني ما تبقى من هذا الكتاب؟

نعم، مع أن ذلك سيحرمني فرصة قراءة باقي فصوله! يعُزُّ عليّ فراق (سيلين) وأنا لم أعرف بعد قصة باقة الزهور.

أخذتُ ما تبقى من الكتاب الذي اقتطع منه بائع الترمس فصوله الأولى.

الدكتور
طموح

بدأت عملي في القطاع المصـــرفي، بعد تخرجي في الجامعة، كانت علاقات والدي الاجتماعية سبباً في شق الطريق أمامي، وكانت توجيهاته وإرشاداته الدائمة تمثل دافعاً قوياً لمسيرة نجاحي العملي.

تزوجتُ زميلتي في الدراسة التي ربطتني بها أواصر القرابة، لم تكن من النوع الذي يتحين الفرص لخلق علاقات التعارف والصـــداقة خلال دراســتها في الجامعة، ولم أكن ممن يبحث عن هذه العلاقات، حتى إن محيط معارفي وأصـــدقائي في الجامعة محدود جداً، كان لوالدي الدور الأكبر في زواجنا، توســط لها لتُعيّن في وظيفتها، وعندما رآها وعرفها سعى لزواجنا.

جاء تعييني في البنك المركزي بعد أن حققتُ شــروط التعيين، واجتزتُ الاختبارات والمقابلات المحددة، وكان لخبرتي في العمل المصرفي في القطاع الخاص أثر مهم في قرار تعييني.

منذ أن التحقت في عملي الجديد اتفقت أنا وزوجتي على أن أستثمر دخلي في تطوير مســتواي التعليمي، فادخرت كل ما يمكن ادخاره حتى أوفر الرسوم الدراسية مقدماً، تحسباً لأي طارئ قد يواجهنا، ساعدتني زوجتي في دفع إيجار الشــقة، ودفع أقســاط البنك التي ترتبت علينا ثمناً

للسـيارة، فانحصـرت مصـاريفنا الشـخصـية على المأكل والمشـرب والنفقات الضرورية.

لم يمض أكثر من سـنتين حتى التحقت بالجامعة الأردنية للحصـول على شـهادة الماجسـتير في العلوم المالية والمصـرفية، كانت فرصـة الدراسـة مواتية جداً، ما إن أنتهي من عملي حتى اسـتقل سـيارتي باتجاه الجامعة أحضـر محاضـراتي ثم أعود إلى منزلي، كانت أيام العمل خلال الأسبوع تستنفذ كل طاقتي، وخصصت عطلة نهاية الأسبوع للمذاكرة والتحضير لمحاضرات الأسبوع التالي.

تحملت زوجتي الحالة الدائمة من الانشغال بالدراسة وعدم تفرغي، ما إن حصـلت على شـهادة الماجسـتير بعد ثلاث سـنوات من الجهد والمثابرة حتى قررت إدارة البنك ترقيتي وظيفياً وأسـندت لي رئاسـة قسم المتابعة والتوريد.

بعد سـنتين من حصـولي على درجة الماجسـتير قررت أن أتابع دراستي للحصـول على شهادة الدكتوراه في ماليزيا، لم يكن من السـهل اتخاذ القرار، لما يترتب عليه من نفقات أكبر بكثير من نفقات دراسـة الماجستير.

أُقدر تمامـاً العبء الذي أُلقي على عاتق زوجتي من وراء قراري الذي سـيضـطرها أن تعيش هي وأبنائي في مسـتوى مالي أدنى من

طموحاتهم؛ لأن دخل الأسرة سيعتمد على راتبها وحدها، وأن المبلغ الذي ادخرناه سيُدفع رسوماً جامعية، ونفقات شخصية، بل سيتطلب الأمر الاستدانة والتورط في قروض بنكية لتغطية الرسوم الجامعية، سأضطر إلى الإقامة في ماليزيا وستقتصر زياراتي لهم على الإجازات الرسمية، على الرغم من هذه الصعاب وافقتني زوجتي على مشروع الدراسة.

تمكنت من الحصول على إجازة دون أجر مدة سنتين أنهيت خلالها دراسة المساقات والمتطلبات الجامعية النظرية، عدت بعدها إلى عملي في البنك، وأسندت لي إدارة البنك مهام رئيس قسم رقابة عمليات الاستثمار الصناعي، لأن الزميل الذي كان يشغل رئاسته أُحيل إلى التقاعد.

خلال عملي تمكنت من تحضير أطروحة الدكتوراه في تخصص استراتيجيات التمويل والاستثمار، التي أخذت من وقتي وجهدي عمل سنة ونصف، بعد انتهائي من إعدادها وقبولها من قبل البروفسور المشرف، تقرر أن أتفرغ مدة فصل دراسي التحق خلاله في الجامعة لإنهاء ترتيبات تقديم الأطروحة ومناقشتها للحصول على شهادتي الجامعية.

تقدمت بطلب إجازة دون أجر مدتها أربعة أشهر تبدأ من مطلع شهر تشرين الثاني، وافقت إدارة البنك على الإجازة، ونُسِّق بأن يقوم بمهام عمل القسم أحد زملاء العمل لم يسبق لي التعامل معه، لكن عرفتُ أنه كان يشغل رئاسة هذا القسم قبل انتقاله إلى العمل في فرع البنك الموجود في مدينة العقبة.

لم أشعر مدى عملي في رئاسة القسم التي استمرت سنة ونصف بأن هذا القسم ذو أهمية، فطبيعة عمله لا تتجاوز المصادقة على تقارير التمويل الاستثماري لشركات القطاع الصناعي، كما تَرِدُنا من المصارف المفوضة بتقديم السلف والقروض المالية للمستثمرين، وعدد الموظفين في القسم في نظري لا مبرر له، وأن تقليصهم إلى النصف لن يؤثر في مسار العمل، وإن كان سيُحمّل البقية جُهداً إضافياً جراء زيادة عدد المعاملات التي ينبغي إنجازها، لكن المستغرب كان موقف مدير الدائرة المالية، وموقف عطوفة نائب محافظ البنك وتشديدهما على توفير بديل محدد للقيام بمهام القسم مدة إجازتي.

انتماء

عتبة الحياة

من غير العادة أن أغادر عملي في منتصف النهار، لكن هذا اليوم الخريفي من شهر تشرين الأول، أضفى في نفسي شيئاً من السعادة والطمأنينة منذ ساعاته الأولى، دخلتُ بوابة البنك متوجهة إلى مكتبي تكاد حالة السرور التي ارتسمت في وجهي تُحدّثُ كل من رآني عما بداخلي، الساعة الحادية عشرة والنصف استأذنت رئيس قسمي بالمغادرة مدة ساعة، قررت أن استغلها في التسوق وشراء رواية (أنت لي)، حددت وجهتي لمكتبة العاصمة للنشر.

خلال السنوات الثلاث الماضية لم تزد زياراتي للمكتبة عن زيارتين، مع أن المسافة بين عملي والمكتبة لا تزيد عن 400 متر، لكن هذه المرة كانت الأمور مختلفة، استمتعت فيها بطقس معتدل تُلاطِف ظلال الغيوم بريق أشعة الشمس، حركة السير ضعيفة والطريق من عملي للمكتبة بمسارين دون جزيرة وسطية.

سلكتُ جانب الطريق الأيمن حتى ما اضطر لقطع الشارع عند انعطافه تجاه نفق الحدادة، كانت المسافة التي مشيتها قصيرة، إلا أنني كنت في غاية السعادة والسرور، صعدت الدرج الجانبي ودخلت المكتبة، وجدت مدير المكتبة جالساً خلف طاولة مكتبه، يقابله شخص

جالس على مقعد جلدي، تبدو السـعادة على ملامحهم، كأنه يوم سـعد غشي مدينة عمان.

ألقيتُ عليهما التحية، وقابلاني بمثلها، سـألت بادئة بلطفاً، أريد أن أطلع على ركن الروايات لو تكرمتم، مكان أعرفه زرته مرتين لكن كان ذلك نوع من الاستئذان، أشار الجالس منهم على المقعد الجلدي سابقاً صاحبه في الرد على سؤالي. في تلك الزاوية.

نظرت حيث أشـار، فإذا برجل واقف في ركن المكتبة، قال مؤكداً: "نعم عند ذلك الرجل".

توجهت لذلك الركن وبدأت أطالع الروايات المعروضة على الأرفف، لَفَتَ انتباهي ارتباك الرجل الذي يبدو أنه تجاوز النصف الأول من أربعينيات عمره، عند وصـولي لرف عرض الروايات كان وجهي مقابلاً لوجهه، لحظتها تناول من رف المكتبة رواية نسـاء صـغيرات، رواية قرأتها وعشـتها حتى شـعرت أنني إحدى شـخصـياتها، تنهدت في نفسـي قائلة: كم تمثلني (جو)، رمقني بنَظره، أدركت منها أنه سـمع تنهيدتي وكلامي، وقالت عيونه كلاماً لم تلفظه الشفاه.

ارتبكت من الموقف، وبدأت أطالع عناوين الروايات أبحث عن رواية أخجل أن أسأل صاحب المكتبة عن توفرها، فاسمها وحدة يوقع

في الحرج، لا أعلم ما كان يجول في خاطر كاتبتها حين أعطتها هذا الاسم.

وأنا في فورة الارتباك والحرج جاءت عيني على رواية جوستين، تناولتها وأخذت أقلب صفحاتها لأخرج من حالة الارتباك التي غشيتني، سمعته يقول بصوت خفيض: "المدينة تصبحُ عالماً عندما يحبُ المرء أحد سكانها".

شعرت أنه يعني مضمون الرواية، فقررتُ أن أبتاعها، لا أعلم أهو فضول معرفي، أم قبول نصيحة، أم أن للأقدار تفسيراً آخر.

استأذنني بأن أُفسح له مجالاً ليخرج، فانتحيتُ جانباً ملاصقة ظهري لرفوف عرض الكتب، وتقدم من أمامي وكأنه أخذ معه كل ما انتشر من رائحة عطري، متوجهاً لصاحب المكتبة، بيده مجموعة من الكتب، كنت عندها قد اخترت روايتين لم يكن من بينهما الرواية التي جئت أبحث عنها.

أُجبرت فضولاً على اختيار الأولى، واخترت الثانية دون أي مبرر، فعلى ما أنا فيه من السعادة والسرور تنامى في نفسي شعور جديد، كان خليطاً من القوة والجسارة والارتباك، إذ كيف أنني دون قصد قد أربكت ذلك الرجل، وعجلتُ خروجه من ركن الروايات بقدومي، وهو أربكني

حتى لم أعد قادرة على تمييز خياراتي، وتبعتُ أثره مغادرة ركن الروايات.

كان صاحب المكتبة يثمن الكتب التي اختارها ذلك الرجل، وعند انتهائه منحه خصماً من المبلغ المطلوب، فنقده الثمن، وبدأ صاحب المكتبة يضع الكتب في حقيبة بلاستيكية مكتوب عليها اسم المكتبة ومزينة بشعارها.

قال له الكلمات التي كنت أنتظرها: تقبل منا أستاذ (آصف) هذه الهدية البسيطة، كانت علبة من ورق الملاحظات الملونة، وفواصل الكتب، وقلم التلوين (الماركر)، شكره على هديته، وتناول حقيبة المشتريات وخرج من المكتبة، ونقدتُ البائع ثمن الروايتين وعدت إلى عملي تغمرني السعادة ونشوة انتصار لا أعرف على ماذا.

الساعة الرابعة مساءً موعد انتهاء يوم العمل، أستقل الحافلة الحكومية المخصصة لمنطقتي السكنية، في الظروف العادية تستغرق رحلة العودة إلى المنزل نصف ساعة، تزيد حسب الموجات المرورية على أوتوستراد عمان الزرقاء، وازدحام المركبات على الإشارات الضوئية.

عادة أقضي وقتي في الحافلة بسماع الأغاني، أو مشاهدة مقاطع الفيديو المنشورة في مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، وهذا حال

الزملاء في الحافلة، كل واضـع سـماعة هاتفه في أذنه وهائم في الفضـاء الافتراضي.

لم تغب عن مخيلتي أحداث اليوم بكل تفاصيلها، أكثر ما كان يجول في مخيلتي تصـور موقفي في المكتبة، وأن اسـم ذلك الرجل يرن في ثنايا مسمعي.

دفعني الفضـول إلى البحث عن هذا الاسـم في مواقع التواصـل الاجتماعي، بدأت في الفيس بوك، كتبت في أيقونة البحث الاسـم "آصف" لم تُجدِ عملية البحث.

بحثت مجدداً عن الاسـم باللغة الإنجليزية، كانت النتائج محدودة، لكنها لم تدل على شخصية ذلك الرجل.

حولت البحث لمحرك البحث جوجل، ومع أول نتيجة ظهرت، حولت فلتر البحث للبحث عن الصور، نعم هذا هو!

دخلت على رابط إحدى الصـور التي تحمل امتداد تطبيق الفيس بوك، فإذا أنا في صفحته على التطبيق.

كان الاسم مكتوباً باللغة العربية مكرراً (آصف آصف).

بدأت أتصـفحها، كانت أيقونة (حول) ثرية بالمعلومات الشـخصية عنه، اسـمه واسـم عائلته، مكان إقامته، مكان عمله، وهو أكثر ما شـد

انتباهي إذ يعمل بالمصرف نفسه الذي أعمله به، لكن، في فرع البنك المركزي في مدينة العقبة، عناوين التواصل الاجتماعي الخاصة به، رقم هاتفه، مستواه الدراسي، الجامعة التي تخرج فيها، حالته الاجتماعية، رابط صفحة زوجته على الفيس بوك.

عند الانتقال إلى مشاركاته وجدتها تنوعت بين الكتابة الاجتماعية في الشؤون العامة، وصور ومقاطع فيديو عن زياراته للمواقع الأثرية، وكتابات متنوعة في الجوانب الثقافية والأدبية.

تكونت لدي صورة تكاد تكون متكاملة عن سيرته الذاتية، وكنت كلما استعرضت أحد المنشورات وضعت إشارة إعجاب.

انتقلت بعدها لرابط صفحة زوجته، وجدتها ألبوماً للصور والذكريات تجمعها بزوجها، تكاد الصفحة تفور سعادة وهناء، أو هكذا تغشى نفسية من يتصفحها.

آصف
نقش في الذاكرة

أبلغني مدير فرع البنك المركزي في مدينة العقبة بضـرورة مراجعة قسـم الموارد البشـرية في البنك المركزي في العاصـمة عمان، بناء على خطاب موجه للفرع ممهوراً بتوقيع محافظ البنك المركزي، يتضـمن قرار انتدابي للعمل في دائرة الاسـتثمارات والعمليات الإقليمية، رئيسـاً لقسـم رقابة عمليات الاسـتثمار الصـناعي، اعتباراً من اليوم الأول من شهر تشرين الثاني، مدة أربعة أشهر وإلى حين عودة رئيس القسم الأصيل من إجازته الخارجية.

لم يكن أمامي سـوى التوجه في اليوم التالي لمراجعة قسـم الموارد البشرية لترتيب ظروف عملي الجديد، فالأمر يتطلب ابتعادي عن أسرتي أيام دوام الأسبوع، والحاجة إلى استئجار سكن أقيم فيه في مدينة عمان، وتغير في كل برنامج حياتي الطبيعي.

صـباح يوم الثلاثاء قابلت مدير مديرية الموارد البشـرية، وأبلغني أن انتدابي لرئاسـة القسـم جاء بتنسيب عطوفة نائب محافظ البنك، لخبرتي السابقة في العمل بهذا القسم.

وبعد تقديم الضـيافة اصـطحبني معه لمكتب عطوفة نائب المحافظ، الذي اسـتقبلني بحفاوة وتحدث عن الأسـباب التي جعلته يختارني دون غيري للعمل بالوكالة عن الزميل المجاز.

أبدى تقديره لتغير ظروفي نتيجة هذا القرار، لكن في منظوره أن طبيعة الوظيفة التي يشغلها الزميل لا يمكن إسنادها لأي زميل من رؤساء الأقسام كونها تحتاج إلى خبرة متخصصة، وعلى اعتبار أني شغلتها سابقاً قبل نقلي لفرع البنك في العقبة قبل أربع سنوات فهذا يعطيه الثقة بقدرتي على إدارة أعمال القسم.

وقبل الوداع قال لي: أتمنى أن تأتي بكل طاقتك وحماسك لاستلام مهام عملك الجديدة بعد أسبوعين أستاذ آصف.

لم يكن أمامي خيار سوى قبول تنفيذ القرار، وإن كنت قد حضرت إلى مقابلة عطوفته وأملي كبيراً بتغيير قراره وإعفائي من هذه المهمة التي ابتليت بها.

على هذا الحال انتهت الزيارة، ولم يعد هناك مناص من تنفيذ القرار.

قررت قبل العودة إلى مدينة العقبة، زيارة مكتبة العاصمة للنشر، التي اعتدتُ أن أزورها خلال عملي في المقر الرئيس للبنك قبل أن انتقل إلى العمل في فرع البنك في مدينة العقبة.

زياراتي المتكررة للمكتبة خلقت نوعاً من الصداقة بيني وبين مديرها السيد (فريد).

دخلت المكتبة التي لم أجد فيها شيئاً قد تغير، فمكتب مديرها في مكانه، وترتيب محتوياتها كما هي.

استقبلني مرحباً، أستاذ آصف (زمان ما زرتنا)، وقام مصافحاً، وطلب مني الجلوس، وبدأ يسأل عن حالي وأخبار عملي، وطلب لي فنجان قهوة، ما إن احتسيته حتى كنت قد وافيته قصتي، عندها حضر أحد موزعي وناشري الكتب فسلم علينا، واستأذنت لأطالع عناوين الروايات وكتب التاريخ في المكتبة.

اخترت ثلاثة كتب وتوجهت لركن الروايات أطالع عناوينها، أكثر ما يزعج في ركن الروايات في مكتبة العاصمة هو اختيار مكان رفوف عرضها، جعلها صاحب المكتبة في الزاوية الجنوبية الشرقية للمكتبة، محصورة بين منضدة لعرض الكتب التاريخية وكتب السيّر التي تتألف من مجلد واحد، وبين الجدار الشرقي لواجهة المكتبة، وجعل الممر بينهما لا يزيد عن متر واحد.

حين وقفت في ركن الروايات أطالع عناوينها وصلت فتاة، يبدو أنها جاءت تبحث عن رواية أو تطالع عناوين الروايات، لكن على ما أنا فيه من تذمر لضيق المكان اقتربت مني تلك الفتاة كثيراً، ارتبكت وتراجعت في خطواتي لأوسع المسافة بيننا، مع نظرة خاطفة لها، حتى لا أُشعِرها بارتباكي.

تناولتُ ما وصلت إليه يدي من رف الروايات، وما إن تبينتُ عنوان الرواية التي سحبتُها من الرف حتى قالت: "كم تمثلني جو".

تبادر لذهني أنها تتحدث عن الرواية، وحين تناولت هي رواية (جوستين) رواية سبق أن قرأتها وهي الجزء الأول من أجزاء رواية رباعيات الإسكندرية، تذكرت قول كاتبها على لسان جوستين: "المدينة تصبح عالماً عندما يحب المرء أحد سكانها"، أردت من إطلاق هذه العبارة على مسمعها الرد على إشارتها عن رواية نساء صغيرات.

لم تكن لدي الرغبة في فتح أي مجال للحديث مع تلك الفتاة، مع أني وقتها كنت قد التقطت كل تفاصيل وجهها، فذاكرتي الفوتوغرافية تسعفني في مثل هذه المواقف.

استطعت أن أحفظ تفاصيل وجهها، واستقرت صورتها في أعماق نفسي، أنيقة في لباسها، محيرة الوجه بين المستطيل والدائري، بشرتها بيضاء ناعمة تفور احمراراً، عالية الجبين، شعرها منسدل أسود اللون، مرسومة الحاجبين، رموشها بين الطويلة والمتوسطة، عيناها نقية البياض شديدة السواد، سماوية الأنف، شفتاها مطليتان (بروج) أُرْجُواني، أسنانها بيضاء مصفوفة، بارزة الوجنتين، أذناها رقيقتان ملتصقة شحمتيهما بفرعي وجهها، دقيقة العنق، تخفي نحرها بياقة قميصها.

ولأني أصبحت محاصراً منها في ركن المكتبة طلبت منها لو أتاحت لي متسعاً من الممر الضيق للخروج. تنحت جانباً وقالت: تفضل. مررت من أمامها متوجهاً لمكتب مدير المكتبة أنقده ثمن ما اخترت من

الكتب، ما إن انتهى من تقدير ثمنها حتى كانت تلك الفتاة تقف بالقرب منا، بيدها كتابان مسندتهما بكف يدها وذراعها الأيمن على خصرها وعلى حقيبة الكتف التي تحملها، وكانت واجهة الكتاب الأول المواجهة لنظري رواية جوستين.

نقدت صاحب المكتبة ثمن الكتب وخاطبني باسمي قائلاً: تقبل مني هذه الهدية البسيطة، وضعها في حقيبة الكتب، فتناولتها منه وودعته والحاضرين وغادرت المكتبة، لأركب سيارتي التي أوقفتها في مسرب الطريق مقابل مدخل المكتبة، فوجدت أن شرطي المرور قد حرر مخالفة الاصطفاف في أماكن ممنوع الوقوف فيها، واضعاً ورقة المخالفة على زجاج السيارة الأمامي، تناولت المخالفة، وركبت سيارتي متوجهاً لمدينة العقبة.

اتبعت العادة التي يتبعها الكثيرون من أبناء محافظات الجنوب، إذ إنهم عندما يحضرون لإنجاز أعمالهم في عمان، يحرصون على استغلال الوقت، وإنهاء أعمالهم قبل انتهاء أوقات الدوام الرسمي في الدوائر والمؤسسات الحكومية، فتجد أحدهم يخرج في وقت مبكر حتى يصل إلى الدائرة المعنية مع أول وقت الدوام، ولا يشغل نفسه بالأكل أو الشرب، خلال ساعات إنجاز أعماله حتى وإن كان أمامه متسع من الوقت، فيبقى على حالته التي وصل فيها، وبعد أن يقضي مصالحه يتوجه مغادراً للجنوب.

وبعـد أن يتخلص من منطقـة ازدحـام المرور يتوقف في منطقـة (الجيزة)، وغالبـًا ما يكون مقصــدهم مطعم مكســيم التركي الشــهير جنوب عمان، يتوقف أحدهم لتناول وجبة طعامه، والتي غالبـًا ما تكون من مشــاوي اللحم، أو الدجاج المحضــر على الفحم، الذي يقدم معه طبق شوربة العدس، والسلطة الحامية، والخبز المتبل، ثم يُكمل مسيرة رحلة العودة.

المســافة من الجيزة إلى مدينة العقبة تقارب 300 كم، تحتاج أربع ســاعات حتى تقطعها، مع أن الطريق بحالة ممتازة، لكن الســرعة مراقبة وحدها الأقصى 120 كم في الساعة، وفي المناطق السكنية التي تمر من خلالها الطريق تنخفض حدود الســرعة القصــوى في بعض الأحيان إلى 50 كم في الســاعة، لا تحتاج أن تتوقف خلال رحلة العودة إلا لأداء الصــلاة متى أدركك وقتها في أحد المســاجد أو المصــليات، أو لتزود مركبتك بالوقود.

ومما يلفت الانتباه أن محطات الوقود منتشــرة بكثرة على جانبي الطريق الصحراوي، مبانيها حديثة جميلة، تكاد تكون الواحدة منها مركز خدمات متكامل، تتوفر فيها إلى جانب المحروقات، خدمتها الرئيســة، محطة غسيل سيارات، ومركز صيانة وإصلاح أعطال الإطارات، ومرافق صحية، ومصليات، وفي بعضها يتوفر مطعم، ومركز بيع مواد استهلاكية، ومحل بيع المشروبات الساخنة.

سيلين
رفقة الروح

أول ما قرأت من ذلك الكتاب الذي مزق بائع الترمس بعض فصوله، قول المتحدثة:

كان قد كتب في أحد دفاتره نصــاً مجزوءاً جاء فيه على لســان سـيدة قولها: أنا امرأة تعرف جيداً أن الحياة لا تسـير كما أريد، أعرف أنها تتشـعب بنا وتأخذنا في موجات ودوامات تُفرض علينا حينا، وتقودنا لها رغباتنا وآمالنا حينا.

أحلامنا وردية، تحملنا حيث تشفى نفوسنا، لهذا أنا لا أستكثر عليه أن يحلم، أن ينتشــي، أن يتعاطف، أن يرق قلبه، أن تأخذه الدنيا حيث تأخذه ثم تعود به مرة ثانية.

أعلم أن المرأة ليســت وصــية على قلب زوجها، ولا رقيباً على سلوكياته، ولا قيداً لحريته.

أعرف أن المرأة شـريكة لزوجها في بيت الزوجية، عليها أن تتفهم أن قُدرتها على احتواء مشاعره هي وسيلتها لبقاء قلبه معلقاً بها.

عليها أن تدرك أن في قلب كل رجل زوايا لا يمكن أن تدخلها زوجته أو أمه أو بنته، هي لغيرهن، فلا تحاول أن تستحوذ عليها.

زوايا يسـكنها الحنين القديم، تتراكم فيها مشـاعر لا يرغب في أن تنقشع عنها آثار الزمن.

عنده إجابات على أسئلة لا يرغب أن يُسأل عنها.

عنده ذكريات لا يحب أن يتذكرها في غير خلوته.

تتقافز منه ابتسامات لا يريدُ أن يفسِرَ أسبابها.

لا تقتلي خصوصياته بغيرتك وفضولك، لا تموت الحياة بوجودها بل تموت بمعرفتها.

الحياة بين الأزواج لا تقوم على معرفة كل كبيرة وصغيرة، بل تقوم على المحبة والأمان، الحياة تقوم على التجاوز لا على العتاب والخصام.

الأسرة كون بذاته، على المرأة أن تحافظ عليها لتعمرها.

على الزوجة أن تترك في محيط كونها كل ما يخصه، متى خرجت من هذا الكون أسراره انقلب كيانه، ليس غير الزوجين من يستطيع تجاوز مشاكلهم.

لا يقاس صدق العلاقات بطولها ولا بنهايتها بل بما تتركه فينا من حب، وما تُنمِه فينا من فضيلة، وما تستثيره فينا من عاطفة وشوق دائم للبقاء في رابطة هذه العلاقات.

بيني وبين نفسي كلما أكتب جملة أعود أقول:

هل هذا ما أنا عليه؟

أم ما يجب أن أكون عليه؟

هل صحيح أنني أتفهم خصوصيات زوجي؟

أم أنني أجد له مبرراً ليفعل ما شاء؟

وفي كل مرة أجدني كل ذلك!

أنا لست امرأة ضعيفة، ولست امرأة قليلة الاهتمام، أو امرأة صلبة قاسية الإحساس، كل ما أنا عليه أنني أنظر من نافذة الأمل لأرى أن زوجي يساير ركب الدنيا، تمره الخواطر قبل أن تمره الأحداث، قائماً على شؤون أسرتنا، يروح بعيداً بصمت، ويعود سريعاً بشوق.

بعد أن تثور في نفسه الأمنيات، وتنعشه الذكريات، وتبعده الطموحات والآمال، تعيده السكينة وراحة البال، يجدني حضناً يحتويه، ويجد بيته ركناً هادئاً يؤويه.

الحب طاقة عظيمة لا يُقدر قيمتها إلا من عاش تجربتها.

طاقة خفية تُظهرها العيون، وتُفصح عنها حلاوة الروح، تأتي بِنَعم تكريماً لكل طلب، تجعل للأسماء معنى، وللذكريات مرايا، وللشوق ابتسامات، وللحنين لحناً جميلاً.

لا أدري هل كان يقول ذلك الكلام على لسان زوجته أم سمعه منها دون أن تشعر وهي تحادث بعض صديقاتها أو جاراتها أو شقيقاتها.

أم أنه يتقمص دوراً تعويضياً يريد من خلاله أن يتعايش مع شعور قد تكون تعيشه زوجته حقيقةً وتخفيه عليه.

أو هو يتوقع منها مثل ردة الفعل هذه، التي يتخيل أنها أفضل ما يمكن أن تواجهه به فيما لو كشفت ما يدور في خاطره تجاه تلك الفتاة.

بصفتي طبيبته النفسية لا يمكن أن استبعد أي احتمال نتيجة الحالة المرضية التي يعانيها.

انتماء

لغة الجسد

في المنزل لا أستطيع إخفاء أي شيء عن شقيقتي (أريام)، فضولية لدرجة أنه لا يمكنني القسم على الاحتفاظ بسر مخفي عنها، ما إن وصلت المنزل وبدلت ملابسي وجلستُ مع أسرتي لتناول طعام الغداء الذي اعتدنا تناوله الساعة الخامسة مساءً؛ لظروف عملنا، ولأنها الساعة الأقرب لاجتماعنا يومياً، حتى بدأت ترمقني بنظراتها وكأنها بدأت تستشعر أن هناك ما يدعو للجلوس سوياً في غرفتنا بعيداً عن ناظري والدينا.

والدتي لا تهتم كثيراً لما يمكن أن نتحدث به أريام وأنا، في نظرها كله كلام صبايا، وإن كان أقصى ما تتمنى أن يأتي لكل منا ابن الحلال، فتخرج كل منا إلى بيت الزوجية، هذا حلمها مذ وُلِدنا، ولم تسعفها السنين التي مضت من أعمارنا ونحن ما زلنا نعيش في الغرفة التي تجاور غرفتها، أريام في الخامسة والثلاثين، وأنا في الثالثة والثلاثين، أما والدي فيلهج لسانه دائماً بالدعاء لنا، أن يرزق الله كل منا زوجاً صالحاً، ليطمئن علينا في حياته قبل أن يوافيه أجله.

يتعاظم شعور والدي ووالدتي بالقلق على مستقبلنا أنا وشقيقتي وقت حضور إخوتي الثلاثة من دول الخليج لقضاء إجازاتهم السنوية، كل منهم مصطحباً زوجه وأطفاله، وأكبر طموحاتهم بالحياة تأمين

مستقبلهم، ومستقبل أبنائهم، يمتلئ البيت بالحركة والسرور عند زيارتهم لنا، وقضاء كل نهارهم في بيتنا؛ فأطفالهم شعلة السرور التي تبهج والدي ووالدتي، عندها تتضاعف التمنيات لي ولأريام، وتحار الأماني بين الفرح بزواجنا أو تقفز بهم الأحلام والخيال الواسع هذه المرحلة حتى يداعبوا أبناءنا.

انتهينا من غدائنا، كان عليّ تنظيف المطبخ، وسارعت أريام لتحضير الشاي، جلسنا مع والدي ووالدتي بعض الوقت، ثم غادر والدي المنزل لأداء صلاة المغرب في مسجد الحي، عندها استلقيت على المقعد، ووضعت رأسي في حِجرِ والدتي عادة كثيراً ما كنت أفعلها لِما أجِدُ فيها من راحة وسكون وهي تداعب خصلات شعري بيدها، ولا انفك عنها حتى تقوم تصلي المغرب.

اقرأ ما في عيني أريام من فضول، وأعرف ألا خلاص من تحقيقها، ما إن تضم مسند الأريكة إلى صدرها وهي متربعة في جلستها حتى تبدأ تحدثني عن يومها وعملها وما عرفته من حديث صديقاتها، تتحدث بأسلوب شائق وتفاعلي وإن كانت معلوماتها بسيطة، مع حركة مستمرة بيديها وتوظف تعابير وجهها لخدمة المشهد الذي تريد وصفه أو التعبير عنه، والحقيقة أنها هي مصدر سرورنا في المنزل، لا تجدها مكتئبة أو حزينة، أو متعكرة المزاج، دائماً في غاية السرور والمرح، لا يوجد في عُرفها شيء اسمه مشكلة، حلولها دائمة حاضرة، وصراحتها مفرطة، لا

يمكن أن تخفى عليها مسـألة تريد أو تفكر في معرفتها، فما لا تأتي به الاعترافات والتقريرات، تستنتجه بالتخمين والحدس.

تجاهلت نظراتها، وأنا متأكدة أني لن أفلت من حصارها.

بدأت تسألني عن الكتب التي أحضرتها معي، متى اشتريتها؟

من أين؟

عم تتحدث؟

طلبت مني إحضارها لتتصفحها، وهي تتساءل متى أمكنك الخروج من العمل لشراء الكتب؟

عندك شيء! هذا واضح.

قلت لها: من أول اليوم أشـعر ببهجة وراحة نفسـية، شـيء داخلي يُضفي عليّ البهجة والسرور، حتى أنساني إرهاق العمل، وأشـعر بقوة داخلية ما شـعرت بها قبل اليوم، ولو تسـأليني عن السـبب فأنا لا أعلم، استفقت صباح اليوم على هذا الحال وما زلت به.

احكي لي من الأول أين ذهبتِ؟

من قابلتِ؟

ماذا حدث معكِ اليوم؟

أحكي لك: قومي نجلس في غرفتنا ونحكي.

كانت أمي قد أنهت صلاتها وعادت إلى الجلوس معنا، فقطعت أريام الحديث، طلبت والدتي مني أن أترك الكسل، وأقوم أصلي المغرب، ما إن أنهيت صلاتي حتى نادت والدتي وطلبت مني تفقد غرفة الضيوف، لأن جارتنا أم رامي ستزورنا، جلست والدتي وضيفتها في غرفة الضيوف وقدمت لهما أريام القهوة وبقيت جالسة معهن، جلستُ أنا في غرفة المعيشة أشاهد التلفاز.

بعد أن قضى والدي صلاة العشاء عاد إلى المنزل، كان في كثير من الأحيان يخرج لأداء صلاة المغرب ولا يعود إلى المنزل إلا بعد صلاة العشاء، يكاد يكون هذا هو الوقت الوحيد الذي يخرج به من المنزل بعد أن تقاعد من عمله، وانقطعت صِلاته برفاق العمل الذين ألهتهم الدنيا في أعمالهم وشؤون أسرهم عن التواصل والتزاور، إنها ضريبة العيش في المدن، والبنايات الصندوقية، وهذا أكثر ما يجعله يشعر بالحنين إلى قريته الجنوبية، والعيش في ريفها الفسيح وإطلالتها على وادي بن حماد الذي كثيراً ما حدثنا عن مغامرات نزوله برفقة أقرانه في أيام شبابه، قبل أن يقرر الاستقرار في مدينة الجيش كما يحب أن يسميها.

في حضور والدي لا يمكن أن نشاهد على التلفاز إلا ما تعرضه القنوات الإخبارية، الأخبار والأحداث التي تنقلها دائماً لا تبشر بخير، وتترك أثراً كبيراً في نفسية والدي، الذي خدم في القوات المسلحة ثلاثين

سنة وأحيل إلى التقاعد برتبة عميد، عمل بعدها عشر سنوات في مؤسسة مدنية حكومية، قرر بعدها الاستقالة بعد إصابته بجلطة أثرت في حرية حركته، لولا لطف الله، ومن ثم عزيمته القوية، لما استطاع أن يتخطى آثارها الجسدية والنفسية.

بعد مغادرة جارتنا أم رامي، حضرت أمي وأريام للجلوس معنا، قمت للمطبخ أجهز صحناً من الرمان، فوالدي لا يحب أكله إلا إذا كان مفروزاً عن لبه، ويحب تناوله بالملعقة، ووالدتي كذلك، أما أنا وأريام فنفلق القشر ونتناول حباته بأيدينا، مع ما يجلبه لنا من متاعب التنظيف بعد التصاق صباغه في مسامات الأصابع، فتبدو يدا إحدانا وكأنها ملطخة بالحبر.

أمضينا سهرتنا ودخلنا أريام وأنا إلى غرفتنا لتحضير ملابسنا التي سنرتديها غداً، وبعد ذلك استلقت كل منا على سريرها، بدأت أسئلة أريام، فقصصت عليها مجريات يومي من أوله، وانصب تحليلها على شخصية ذلك الرجل.

قالت: إذا كان يعمل بنفس عملك لكن في فرع العقبة، فمعنى هذا أنه قد يكون حضر لأمر ما يتعلق بعمله، ولا بد أن يكون راجع البنك، وبعد انتهائه توجه للمكتبة القريبة.

أما شعورك أنك أوقعته في الارتباك فقد يكون الأمر ناتجاً عن طبيعة البيئة التي يعيش فيها؛ قرأت مرة في أحد كتب تحليل وتفسير لغة الجسد،

أن أبناء المدن نتيجة طبيعة سكنهم المتقارب، واستخدامهم وسائل المواصلات المختلطة، وطبيعة الازدحام في الأماكن التي يرتادونها، تكون مساحة الفرد المكانية محدودة، فهم بذلك يعتادون الاقتراب بأجسادهم من بعض ولا يشعروا بأي حرج، في حين أن سكان المناطق الريفية أو البوادي لديهم فضاء أوسع، ولا يعتادون الدخول في المناطق أو المواقف المزدحمة، فتكون منطقة الحدود الشخصية لديهم أوسع، فمن الممكن أنك عندما وصلت ركن الروايات كنت قريبة جداً منه، فجاءت ردة فعله طبيعية لهذا شعر بالإحراج وآثر المغادرة.

أقنعني تحليل أريام وحديثها عن لغة الجسد، والحقيقة أن تحليلها جعلني أعيد حساباتي وأتنبه لهذه القضية التي لم تكن تخطر لي على بال، تناولت رواية جوستين وبدأت أقلب صفحاتها وأقدر كم من الوقت الذي احتاجه لقراءتها، بدت لي مقدمتها ضبابية وتحتاج إلى كثير من التركيز لفهم أحداثها، فقررت أن أترك قراءتها لعطلة نهاية الأسبوع.

آصف

محل الثقة

وصلت منزلي الساعة السادسة مساءً، هذه أول مرة منذ زواجي قبل ست سنوات أتغيب فيها عن أسرتي نهاراً كاملاً، استقبلتني زوجتي (ولوش) - وهذا أحب لقب إلى نفسها، لا يناديها به غيري، أهلها وأقاربها وصديقاتها يلقبونها (لولو) ـــ على باب المنزل بقبلة طبعتها على خدي الأيمن، وعانقتُ ابنتي (سلافة) وابني (فيصل).

كالعادة فإن أول عمل أقوم به عند دخول منزلي أن استحم، لأنعش جسدي وأعيد لكل مسامة من مساماته شبابها وحيويتها، من أكثر الأشياء التي أكرهها أن أشمَّ رائحة العرق مع أي إنسان، وأكثر ما يثير اشمئزازي أن اضطر لمجالسة شخص تنبعث منه رائحة العرق، لا أدري أين هي حاسة الشم عند بعض هؤلاء، ولا أدري من على هذا الحال كيف تتقبله زوجته في سريرها، قذارة، كأن أحدهم كيس قمامة متخمرة، والأسواء إن كانت هذه الرائحة تنبعث من جسد امرأة.

منذ ليلة زواجي الأولى كانت هذه المسألة محل الشرط والاتفاق بيني وزوجتي، أن من يدخل منا المنزل بعد يوم العمل أو التسوق أو لأي حاجة استدعت منه جهداً خارج البيت، يكون أول عمله الاستحمام، وإن فكر أحدنا بأن تكون ليلته ليلة زوجية فإن الاستحمام هو شرط

الاجتماع على السـرير، واعتقادي أنه إذا كان الاغتسـال فريضـة بعد الجماع، فإنه قبله من باب أولى.

جلست على الأريكة الثلاثية في غرفة المعيشة، ثم رفعت كل جسدي وتمددت عليها لأسـتريح من رحلة اليوم الشـاقة، قدمت ولوش فنجان قهوتي، وبدأت تسأل عن تفاصيل يومي، كانت تستمع وهي تبتسم بسمة الشـك والارتياب، اعرف سـلوكها وطباعها، وأكاد أصـل لما يدور في خاطرها، فسألتها تعتقدين أني لم أقل ما تريدين سماعه؟

قـالـت: نعم. من هي (أُرْجُوان)؟ لم تَغِـب عنـا بعـد! قلـت: من أُرْجُوان؟

قالت: هذا هاتفك! سـبعة عشـر إعجاباً على منشـوراتك في تطبيق فيس بوك، كلها برعاية مس أُرْجُوان. تناولته منها، تصفحت الفيس بوك، دخلت لصفحة أُرْجُوان، ليست صديقة عندي.

دخلت أيقونة (حول) عسـى أن أجد ما يدل عليها، كانت معلوماتها مقتصرة على اسم أُرْجُوان. مكان الإقامة مدينة الزرقاء. العمل في القطاع المصرفي. حالتها الاجتماعية عزباء.

نظرت إليهـا وقلـت لا أعرفهـا، قـد تكون شـخصـية وهمية من شـخصـيات السـوشـل ميديا! لا يتطلب الأمر أكثر من هذا القول؛ لأن مصـدر ثقة ولوش ناتج عن صـراحتي المطلقة معها، في أي قضـية وحول

أي موضوع، عدا ما أعده سراً قد يعكر صفو علاقتنا إن علِمَت به، فأُخفيه عنها بكل الطرق وأنكره شديد الإنكار إن لم تصدق. يقولون إن كان في الكذب نجاة فالصدق أنجى، إلا في مثل هذه الحالات فالكذب على الزوجة أنجى؛ لأن غريزة المرأة لا تحتمل ما يثير غيرتها. فبقاؤها في حالة الشك خير ألف مرة من سكوتها على مضض وهي تسمع من الحقيقة ما يثير كوامن نفسها.

ولأن الهاتف النقال غالباً ما يكون هو مصدر إثارة الشكوك عند الكثير من الزوجات تجاه أزواجهن، فقد تخطيت هذه المرحلة بالطريقة التي رأيت أنها الأنجح، فقد جعلت لها بصمة على هاتفي، بذلك يمكنها فتحه في أي وقت، وتتصفحه كيف تشاء، لا حرج عليها أبداً في ذلك، بالمعنى الحرفي لا يوجد لدي ما أخفيه، أو أخشى أن يطلع عليه أحد.

في المقابل لست على استعداد لأطلع على هاتفها، ولا أكلف نفسي وضعه في حالة الصامت إن كانت منشغلة في أي شأن من شؤون المنزل وهو يرن بالقرب مني. واتفاقنا قائم على عدم اتصال أحدنا بالآخر وهو في عمله، وإن استدعت الضرورة ذلك يكتفي أحدنا بإرسال رسالة واتساب يشعر الآخر بالأمر.

استكملتُ إجراءات تسليم مهام عملي في فرع البنك في العقبة يوم الأحد، آخر أيام تشرين الأول، شاركت عائلتي الغداء، وودعتهم مغادراً إلى عمان، مع ساعات المساء وصلت سكني الجديد، استوديو مفروش

قريب من الجامعة الأردنية، استلمت مفتاحه من المؤجر بعد توقيع عقد الإيجار ونقده إيجار شهر مقدماً.

بدت الأمور سهلة، رتبت محتويات حقيبة ملابسي في خزانتي وبدأت، أتعرف على محتويات سكني الجديد، غرفة نوم مستطيلة طولها خمسة أمتار وعرضها أربعة أمتار، تحتوي على خزانة وسرير، ومنضدة مجاورة للسرير، وصالة صغيرة مفروشة بطقم كنب، وطاولة وسطية مستطيلة، معلق على جدارها الشرقي شاشة تلفاز، تنتهي في جهتها الشمالية بباب يفضي إلى مطبخ صغير، بجانبه حمام، حضّرتُ لنفسي كوب من الشاي، وتناولت هاتفي واتصلت بزوجتي أسأل عنها وعن أبنائي، وأخبرها بوصولي وأحدثها عن سكني الجديد.

الإقامة في مدينة عمان ليست بالأمر الجديد عليّ، فأنا من عام 1995، سكنت في سكن طلابي مشترك في منطقة صويلح، حتى أنهيت دراستي الجامعية، وتخرجت في الجامعة الأردنية تخصص علوم مالية ومصرفية، وعدت للسكن نفسه في صويلح عندما عينت في وظيفة بالبنك المركزي شهر تموز عام 2005، أقمت فيه السنوات العشر الأولى، وانتقلت بعدها للسكن في منزل مستقل في الهاشمي الشمالي، بعد أن تزوجت، إلى أن صدر قرار نقلي للعمل في فرع البنك في مدينة العقبة في شهر تموز 2017، لكن الجديد هذه المرة أنني متزوج ورب أسرة لم أعتد المبيت بعيداً عنهم.

مضت ليلتي الأولى، وصبيحة يوم الاثنين وصلت مركز عملي الجديد في البنك المركزي، استلمت مهامه التي لم تتغير كثيراً، وإن طرأ بعض التغيير الذي نتج عن استخدام وسائل وبرامج حاسوبية متطورة، موظفي القسم ثمانية خمسة منهم لم يسبق لي العمل معهم، جاءت قرارات تعيينهم بعد إحالة الزملاء القدماء للتقاعد، إثر صدور قرار مجلس الوزراء بتقييد مدة الخدمة المدنية في الدوائر الحكومية بثلاثين سنة، أصبحت (وداد) أقدم موظفة في القسم، أذكر قبل نقلي من القسم أننا نمازحها دائماً بأن نناديها بالآنسة أم وسام، نُقحِم لقب آنسه في كنيتها.

طبيعة العمل في القسم فنية متخصصة، لا يوجد تعامل مباشر مع الجمهور، وتنجز المعاملات على أنظمة محوسبة، هذه البيئة الوظيفية تبعث على الراحة والهدوء، وتعطي الموظف فرصة إنجاز مهامه الوظيفية على نحو دقيق وسريع، وفي الوقت ذاته تخلق نوعاً من التآلف بين موظفي القسم؛ لإمكانية قضاء بعض الوقت في الحديث الجانبي الذي تتشعب محاوره وتتنوع موضوعاته.

مضى يومي الأول في العمل والحقيقة التي أخفيها مع التماس العذر للزملاء، أن أحداً منهم لم يبادر إلى عزيمتي ولو من باب المجاملة.

أعد نفسي ضيفاً، وأعد نفسي غريباً في عمان، لكن هذه أخلاق المدينة، كلا أخلاق ناسها، ظروفهم الوظيفية، التزاماتهم المادية،

نظامهم المعيشي، تصميم شققهم السكنية، كلها عوامل تحد من تلفظ أحدهم بطلب الاستضافة.

أهل المدن ضوابط الإنفاق عندهم تختلف عن أهل البادية وأهل القرى.

علينا أن نُسلم بذلك.

لا تنتظر من موظف يقضي ثلث يومه في عمله أن يقضي شيئاً من وقته مأسوراً بتقديم سبل سعادتك وراحتك.

اقتنعت وقبلت الاعتذار، يبدو أن هذه أول محاوراتي لنفسي أو هلوسات ستُكثِر من طوافها في مخيلتي إن سلّمتُ نفسي لنفسي بالجلوس وحيداً في سكني الجديد، لا أنيس ولا جليس!

ليلة الخميس كانت ليلة مختلفة عن ثلاث ليال سبقنها، كيف لا وغداً سأعود إلى أسرتي أقضي معهم عطلة نهاية الأسبوع، أشتاق إلى زوجتي، ولأبنائي، أربع ليال ما أطيق أن أبتعد عنهم، إنها العاطفة، كيف بحال من يتغرب عن أسرته وعن وطنه، وتجبره ظروفه أن يعد غربته بالشهور أو السنوات، وحدة القياس باليوم وحدة خارج حدود التعامل مع الزمن في عُرفه وعُرف أهله وذويه، أمه إن كانت عجوزاً، ووالده إن كان وحيده، وزوجته إن كانت في سنين صباها، مرارة الغربة لا تُحليّها إلا حلاوة المال إن استطاع أن يعود به غانما، وإن عاد فقيراً كما رحل، فلا حياته عاشها، ولا غربة تجنب تجرع مرارها.

صباح يوم الخميس كنت عريساً ــ أو بهذا المعنى ــ سأكون ضيفاً عزيزاً، ومسافراً يرقب دخول باب منزله ليحتضن زوجته، ويتعانقا عناق الأحبة، أربعاً قضت من عمر قصير، لا تلومني عزيزي، الفقر واليتم قبل غلق الباب أعيياني، لم أتمكن من توسد ذراعها قبل أن تمر من سنين العمر ثمان وثلاثين سنة، انقضت وهي تنخر في عزيمتي وإرادتي، كان قراري، لا، كان قدري، نظرتُ حولي يوم جاء قرار تعييني في البنك المركزي بعد ست سنوات قضيتها في أعمال متفرقة بائع عطور مركبة، أو بائع ملابس سيدات، في سوق (الرواق) في مدينة العقبة، لم أشعر يوماً بالأمان، كنت مهدداً بين يوم وآخر بالطرد من العمل، لأن صاحب العمل سيحضر ابنه أو ابنته ويستغني عني بكل بساطة، أو يستأجر أحد العمالة الوافدة الذين يقبلون بأجر أقل.

يومها أقسمتُ على نفسي ألا أمنيها بالزواج والاستقرار حتى اشتري منزلاً وسيارة، وأوفر تكاليف الزواج، لن أرتدي البَدْلة وأنا مطالب لابن امرأة ولو بدينار واحد، كلفني ذلك أن أدخر كل دينار يزيد عن مصروفي الشخصي الضروري على مدى عشر سنوات، زملائي كان الواحد منهم يخطب ويتزوج منذ عامه الأول في العمل، ويبقى يدفع أقساط الأثاث وإيجار المنزل، وأقساط السيارة سنوات عدة، وأنا أنظر إليهم نادماً على قسم ما أريد أن أتحلل منه، كلمة قلتها لحظة انكسار وضعف، خلقت مني أعزباً لولا أن ساق لي الله قدراً جبر قدرا.

اتصل بي عمي فيصل ذات مساء، طلب مني أن أزوره في قريتنا بالقرب من مدينة العقبة نهاية الأسبوع، لأنه سيخطب لأصغر أبنائه، وجدتها فرصة لزيارتهم، فأنا منذ بدأت عملي في البنك قل ما أذهب إلى هناك، ماذا سأفعل رجلاً عزب، لا أم تنتظره، ولا والداً يسأل عنه، غادرا الدنيا وتركاني وحيداً لطيماً، تحمّلت جدتي عناء رعايتي حتى وافاها أجلها، وأنا في عامي الأول في الجامعة، من لحظتها بدأت حياة العزوبة والوحدة تحاصرني من جهة، والفقر يحاصرني من الجهة الأخرى.

كنت مضطراً للعمل بأي مهنة، وبأي أجر، مكان يؤويني ولقمة تقويني أكبر طموحاتي، وغاية ما أسعى إليه، حتى أنهيت دراستي الجامعية، لولا أني كنت أدرس على حساب المكرمة الملكية لأبناء المتقاعدين من القوات المسلحة لكانت الدراسة الجامعية من المحرمات.

كنت أحلم أني ساعة تخرجي سأجد عملاً في أي مصرف، أو دائرة رسمية، لكن لم يسعدني حظي قبل أن أجرب فنون البيع والشراء في سوق الرواق، السوق الشعبي الذي يعرفه كل من زار العقبة، أعرف مواسمه النشطة، وأعرف متطلباته من أنواع البضائع، وأعرف أوقات عرض أصناف البضائع، حتى أساير متطلبات الزبائن، تعرفت على السعيد من

تجـار السـوق، وتعرفـت على الرابح منهم والمفلس، دارت بي دائرة السوق، وعملت في كل صنف، لم تكن تغشى جيبي من مال السوق إلا دنانير تنفق في مأكلي ومشربي ومسكني، ست سنوات مرت من عمري ما أنا مصنف من قطاع العاملين، ولا مصنف مع قطاع العاطلين.

انتماء

انسجام

قرأتُ رواية جوستين، حياة صاخبة عاشتها في الإسكندرية، امرأة تمردت على الحياة، فعاشتها كما اشتهت، الحياة مُتعة لحظتها، قال لورانس داريل على لسانها: "هناك أشياء ثلاثة يمكن القيام بها مع امرأة، أن تحبها، أن تعاني من أجلها [...] أو تحيلها إلى مادة للأدب"، وهل نريد نحن غير ذلك.

وقالت: "من العسير أن يحارب المرء رغبة قلبه. فمهما كانت تلك الرغبة، فإنها تبتاعها على حساب الروح"، كم تعذبت أرواحاً لم تبلغ رغائبها.

وعن الحب قالت: "الحب شيء ثابت بقدر هائل وليس مخصصاً لكل منا، إلا جزء منه، نصيب ما. إنه قادر على الظهور في صورة لا نهاية لها والارتباط بأناس لا حصر لهم، إلا أن كميته محدودة ويمكن استهلاكه"، وهل أرواحنا إلا مادته.

طرأت تغييرات إدارية في بعض أقسام البنك بسبب إحالة بعض الزملاء إلى التقاعد، كان نصيبي في هذه التغيرات النقل من قسم خدمة الجمهور، إلى قسم رقابة عمليات الاستثمار الصناعي اعتباراً من تاريخ 14/ 11.

التغيير دائماً جلبة للمتاعب، سيتطلب الأمر أن أقوم بعمل جديد، وأخضع لتدريب عملي لاكتساب المهارات الوظيفية التي تتطلبها طبيعة العمل الجديد.

صحيح أن حركة التنقلات الوظيفية كانت في المبنى نفسه، لكن مهام الوظائف بين قسم وآخر تكاد تختلف تماماً، وكأن أحدنا جاء لبيئة عمل مختلفة كلياً عما اعتاد عليها.

استكملت إجراءات نقلي صباح يوم الأحد وودعت زملائي ورئيس قسمي لأباشر عملي في القسم الجديد.

قال لي رئيس القسم قبل أن أغادر مكتبه: إذا واجهتك أي مشكلات في القسم الجديد لا ترددي بإعلامي، رئيس قسمك الجديد صديقي، وسأتصل به استوصيه بك.

شكرته وغادرت مكتب القسم وأنا أشعر بضعف لا أعلم كيف تسلل إلى نفسي.

وصلتُ لمكاتب قسم الاستثمار الصناعي في الطابق الثاني من مبنى البنك، وأول من لاقيت من موظفي القسم (مروان)، أبلغته أنني الموظفة المنقولة للقسم.

رحب بي ودعاني لمرافقته إلى مكتب رئيس القسم، طرق الباب المفتوح وقال: تفضلي.

خاطب رئيس القســم قائلاً: هذه زميلتنا الجديدة أســتاذ، ثم غادر المكتب.

وقف رئيس القسم مرحباً بي وقال: تفضلي (ستي).

جلست في المقعد المقابل لمكتبه، وعرّفتُ بنفسي قائلة: أنا (انتماء) منقولة من قسم خدمة الجمهور لقسمكم.

قال: أهلاً وسهلاً ست انتماء، مرحباً بك.

سألني عن قهوتي، طلب فنجانين.

التفت إلي وقال: تقابلنا من قبل ست انتماء!

اعتذر أستاذ لا أتذكر.

بلى، في مكتبة العاصمة قبل شهر تقريباً.

تذكرتُ حينها

نعم إنه هو

قلت آه. آ والله، أستاذ آصف.

قال: نعم.

قلت: هذه مفاجأة ما كنت أتصورها.

بدأنا حديث تعارف، واحتسينا القهوة، وعرجت للحديث عن رواية جوستين، كان مسروراً لأن هناك من يستطيع أن يتبادل معه الحديث في هذا الموضوع.

قال لي: لم أقرأ رواية نساء صغيرات بعد، لكن سأصحبها معي الأسبوع القادم وأقرأها، ولنا حولها حديث.

قلت له: من دواعي سروري.

عُدنا لموضوع العمل في القسم وقال: إن مهام العمل في القسم تحتاج مهارات فنية وإدارية سيتم تدريبك عليها خلال الشهر الأول من عملك، متمنياً أن تنسجمي مع فريق العمل.

نهض من مقعده وقال: هيا حتى تتعرفي على موظفي القسم، وتطلعي على طبيعة أعمالهم.

نهضتُ معه، تعرفتُ على زملاء العمل الجدد، كلف مروان بمتابعة تدريبي وإكسابي المهارات المطلوبة، وعاد إلى مكتبه.

انقلبت حالة الضعف التي صحبتني عند مغادرة قسمي القديم إلى حالة من الدهشة والمفاجأة من تعرف الأستاذ آصف عليّ بهذه السرعة.

بدأت أتساءل في نفسي لماذا لم تكن ذاكرتي أسرع من ذاكرته في استحضار المشهد وتذكّر الحَدث؟

فأنا من انشَغَلت حينها في البحث عن تفاصيل حياته كما عرفتها من صفحات التواصل الاجتماعي التي يستخدمها، ومع ذلك غابت عني ملامحه عند مشاهدتي له في مكتبه، هل صورنا في بيئة العمل تختلف عنها في الخارج، آه يا أريام ليتك شاهدة على هذا الموقف!

عند عودتي إلى المنزل مساء ذلك اليوم، استشعرت أريام ما أنا فيه من راحة نفسية، عكس ما كنت عليه قبل ذلك من قلق بسبب قرار نقلي، وكان سؤالها كيف كانت الأمور في القسم الجديد؟

أجبتها بأن الأمور المتعلقة بالعمل لم تتضح بعد، ولم يكن بإمكاني أن أتعرف على طبيعة عمل القسم بالشكل الذي يمكنني الحكم عليه، وإن لم يكن عندي خيار غير القبول بالواقع، زملاء العمل في القسم فتاتين وخمسة شباب، والمصادفة أن رئيس القسم الذي شعرت أنه منسجم في تعامله وسلوكه مع الزملاء جميعهم، ومكلف بإدارة القسم مدة أربعة أشهر إلى حين حضور الرئيس الأصيل من إجازته التي يقضيها خارج الأردن، وسيغادر بعدها إلى فرع البنك في مدينة العقبة.

أتعرفين من هو رئيس القسم؟

من؟

إنه الرجل الذي التقيته في المكتبة قبل أسابيع وحدثتك عنه!

قطعنا الحديث مع دخول أبي وأمي إلى المنزل

سألت أريام أين كانا؟

اصطحب أبي أمي إلى طبيب الأسنان.

لم تكن أمي قادرة على الكلام وطمأنتنا على حالها من تأثير البنج في لثتها، وقلعها لأحد أضراسها.

أما أبي فكان سؤاله لي كيف كان عملك اليوم؟

الحمد لله، إن شاء الله تكون الأمور على خير.

قال: يا ابنتي إن أصعب مراحل العمل والتأقلم مع التغيير الذي ينتج عنه تنقضي خلال ثلاثة أيام، إن استطعت خلالها التأقلم ستكونين مرتاحة وقادرة على الإنتاج والعطاء.

في اليوم الثاني من عملي في القسم الجديد شعرت أن الحيوية في تعامل الزملاء مع بعضهم البعض غير تلك التي اعتدتها في قسم خدمة الجمهور، حيث كانت الجدية حاضرة بقوة بين الزملاء.

في هذا القسم كان الجميع يتصرفون بشكل عفوي دون تصنع، أو رسميات، ينادون بعضهم البعض بأسمائهم أو بكناياتهم، لا توجد كلمة أستاذ أو أستاذة بينهم، إلا من رئيس القسم لا يخاطب أي منا إلا يسبق خطابه قول سيد أو ست.

أطرف ما سمعت منه ونحن نحتسي قهوتنا قوله: اليوم سنعاقب السيد مروان!

لحظتها دُهشت من كلامه!

يقول سيعاقب مروان!

ماذا يعني؟

العقاب في كل حالاته نوع من الحرمان، ماذا سيحرمه رئيس القسم.

من الزملاء من قال يستحق!

ومنهم من لم يبد استغراباً.

إلا أنا انظر مستغربة ماذا يجري!

أكمل حديثه قائلاً لمروان: بإمكانك المغادرة الساعة الثانية والنصف.

عندها فهمت أنه يعني بالعقاب منحه ساعة ونصف مغادرة رسمية من العمل.

قلت في نفسي ليته يعاقبني يوم إجازة أضمه لعطلة نهاية الأسبوع.

كنت أتحجج بأي جديد يُثير تساؤلي في العمل لا يستطيع مروان توضيحه لي، لأسأل عنه رئيس القسم، فأتوجه إلى مكتبه، يرحب، أجلس، يفتح مجال الحديث، يجيب عن أسئلتي، لا يتحرج من تشعب الحديث.

سألني عن عملي قبل الالتحاق بوظيفتي في البنك؟

قلت: بعد تخرجي التحقت بالخدمات الطبية وعملت محاسبة سبع سنوات إلى أن طلب البنك المركزي من القوات المسلحة انتداب محاسبين للعمل في البنك، وانتدبت للعمل، وبعد عدة أشهر صدر قراراً بتعييني ومن انتدب مثلي للعمل في البنك بشكل رسمي، فأنهيت خدماتي في الخدمات الطبية، واستمر عملي في البنك.

قال: محظوظة.

قلت: الحمد لله.

آصف
ميلاد المشاعر

تفترض ظروف العمل ارتباط الموظفين بعضهم ببعض وفقاً لهيكل تنظيمي رسمي، يحدد الصلاحيات والمسؤوليات بشكل دقيق، لكن يرادف هذا الهيكل عادةً هيكل غير رسمي وغير محدد في خطوط اتصاله تمثل علاقات الموظفين الشخصية بعضهم ببعض، وفي أحيان يكون هذا الهيكل أكثر تأثيراً في سلوكيات الموظفين من الهيكل الوظيفي الرسمي، حيث يكون للعلاقات الشخصية آثارها الفاعلة في إنجاز الأعمال الرسمية.

قد تكون طبيعة عملي في البنك رئيساً لقسم يعمل بمعيتي ثمانية أفراد ميزة تجعلني على اتصال مباشر معهم، مطلع على بعض خصوصياتهم، وفي المقابل هم على معرفة بطبيعة شخصيتي، وظروفي الاجتماعية والوظيفية، والقناعة الراسخة التي اعتقدها وانتهجها في العمل هي أن اكتساب ثقة زملاء العمل إحدى أهم عناصر النجاح الإداري، وأن تسيير أعمال القسم الوظيفية بالدقة والسرعة المطلوبة واحدة من أهم معايير الإدارة الناجحة.

وجودي في هذا القسم وأنا أستشعر أنني لن أستمر في رئاسته إلا مدة وجيزة، ومن ثم العودة إلى مكان عملي الرئيس في فرع البنك بمدينة العقبة، زاد حرصي على توطيد علاقتي الشخصية بزملاء العمل،

وأصبحت حريصاً على زيادة مساحة التفاعل الشخصي وفتح المجال بشكل أكبر لتبادل الأحاديث الجانبية، مستغلاً بذلك كل لحظة ممكنة لتفرغ أحد الزملاء من إنجاز عمله.

كانت موظفة القسم الجديدة انتماء أكثر موظفي القسم قرباً مني، وأكثرهم تبادلاً للحديث معي، بسبب أنها متدربة، ولم يسند لها وظيفة محددة تستنفذ وقت عملها في إنجازها. السبب الثاني الذي قد يكون أكثر أهمية أنها من محافظة جنوبية وهذا جعل بيننا انسجاماً أكثر من بقية الزملاء، فكلانا جنوبي الأصل والهوى، ويمتعني حديثها عن والدها وتعلقه بالجنوب، ويستهويها أي حديث عن الجنوب من طرفي.

كانت عند حديثي عن البادية الجنوبية تُنصت حتى اعتقد أنها تعيش اللحظة في مخيلتها، وعند الحديث عن العقبة تستمتع وتكاد تشاركني الحديث عن أسواقها ومرافقها السياحية، التي زارتها في رحلتها السياحية قبل سنوات.

الميزة الثانية في انتماء حبها للثقافة، وتشاركي وإياها في بعض القراءات في فن الرواية، تخالفني في بعض جوانب التحليل وتتشبث برأيها، وأنا أسايرها وإن كنت لا أجد مبرراً لإصرارها على رأيها أو موقفها.

صبيحة يوم ثلاثاء من شهر كانون الأول، جاء اتصال هاتفي من أريام شقيقة انتماء تخبرها أن والدها تعرض لوعكة صحية وأنهم أدخلوه

المستشفى العسكري في مدينة الزرقاء، ما كان مني إلا أن طلبت من رئيس قسم الحركة في البنك أن يطلب من سائق حافلة الزرقاء إبلاغ إحدى موظفات البنك اللاتي يسكنّ مدينة الزرقاء أن تحضر للقسم كي تصحبني في توصيل انتماء إلى المستشفى. سريعًا حضرت (جود) زميلتنا في العمل، غادرنا ثلاثتنا إلى المستشفى، وعند دخولنا قسم العناية المركزة، وجدنا على باب القسم أريام ووالدتها، كان الطبيب قد أخبرهما بأن الحالة الصحية لمريضهما مستقرة، وأنه بحاجة إلى الرعاية الصحية، ويمكنهم زيارته شريطة عدم المكوث طويلاً عنده.

دخلت أريام ووالدتها بعض الوقت، وعند خروجهما دخلت انتماء وأريام، وخلال دقائق عادت انتماء بعد أن اطمأنت على صحة والدها، كانت حالتها أفضل وهدأت نفسيتها، عندها طلبت مني ومن جود الدخول لزيارة والدها، اعتذرت عن الدخول، عندها خرجت أريام واصطحبت معها جود لزيارة والدها، وطلبتُ من انتماء ووالدتها أن نذهب لغرفة الاستراحة ونجلس هناك.

جلسنا في غرفة الاستراحة بعض الوقت حتى حضرت أريام وجود، عرضتُ على جود أن أوصلها إلى منزلها، شكرتني، وقالت: إنها ستأخذ سيارة أجرة لأن منزلها قريب من المستشفى، وغادرتنا بعد أن هنأت انتماء وأسرتها على سلامة الوالد. عندها استدركت انتماء الموقف وعرّفت والدتها وشقيقتها علي.

فبادرتُ قائلاً: حضوري كان واجباً لتوصيل انتماء لتطمئن على صحة والدها، لأن وقع الصدمة عليها كان كبيراً، ومن غير الممكن تركها تغادر البنك باستخدام المواصلات حتى تصل إلى المستشفى، شكرتني والدتها وشكرتني أريام على موقفي.

أحضرت لنا أريام عصير، وكان عليّ أن أبرر سبب امتناعي عن زيارة والدهم المريض والاطمئنان على صحته وأنا أقف على بعد خطوات من باب القسم الذي يرقد فيه على سرير الشفاء، فقلت لهن: أنا أقدر الحالة النفسية التي يشعر بها المريض والتي يشعر بها أهله عند رغبة أحد الأشخاص بزيارته، فبعض المرضى لا يحبون أن يراهم أحد وهم في حالة ضعف، أو في حالة إعياء، أو في وضعية جلوس تفرضها الحالة المرضية، أو باللباس الخاص بالمرضى، وبعضهم تأنف نفوسهم أن يكونوا محل نظرة شفقة من أحد، هم عظماء يحبون أن يبقوا عظماء في أعين الناس، وجودهم في المشفى حالة من حالات الضعف.

تجربتي في الحياة حين رافقت والدي طيلة زمن مرضه في المستشفى علمتني هذا الدرس، فلا أعتقد أن المريض بحاجة إلى أحد يزوره وهو في حالة استشفاء، وأن وقت الزيارة يكون عندما يستعيد المريض عافيته، ويكون في استعداد نفسي وجسدي لاستقبال المهنئين له بسلامته.

شكرتني والدة انتماء وشقيقتها على مشاعري، وعلى توصيل انتماء إلى المستشفى، وأبلغت انتماء بأنها مجازة من العمل يوم غد حتى تبقى

قريبة من والدها، ودعوت الله لوالدها بالشفاء، وودعتهن وعدت إلى سكني في عمان.

يمر الوقت بطيئاً في سكني، من الساعة الرابعة والربع مساءً، إلى الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، ما أجد شيئاً يسليني إلا قِراءة في كتاب، أو تصفح المواقع الإلكترونية، أتحدث مع ساعة الحائط حيناً، مع الاب توب حيناً، أتحاور مع مذيعي القنوات الإخبارية وضيوف البرامج التلفزيونية! فراغ قاتل.

في إجازاتي السابقة كنت أحادث زوجتي عن تذمري من هذا الفراغ، كانت تنصحني بالذهاب لأحد المقاهي لو ساعة يومياً لكسر رتابة يومي، يوم الاثنين من كل أسبوع أقضي ساعتين في مكتبة عبد الحميد شومان، أحضر خلالهما الجلسة الحوارية الأسبوعية التي يستضيفون فيها إحدى الشخصيات العلمية أو الأكاديمية أو الثقافية، تروح عني شيئاً من الملل الذي أنا فيه، في إحدى إجازتي اقترحت عليّ ولوش أن أنتسب إلى مركز لياقة بدنية، وبذلك أكون كسبت مهارة رياضية، وتخلصت من وقت الفراغ.

أعجبتني الفكرة، والتحقت في مركز رياضي قريب من سكني، أقضي فيه ساعتين كل يوم، غالباً كنت ابدأ التمرين الساعة السادسة مساءً.

تعرفت في المركز الرياضي على الآنسة كاساندرا، أمريكية من أصول يونانية، تقاربني في العمر، شخصيتها مرحة، تجيد الحديث باللغة

العربية، تعمل في مركز دراسات وبحوث متخصص في دراسات الوعي السياسي لمواطني بلدان الشرق الأوسط.

يظهر النمش في وجهها وعنقها وساعديها، ترتدي خارج النادي ملابس عملية، عادة بنطال جينز، وقميص، وسترة خفيفة مصنوعة من الجلد تناسب برودة أجواء منطقة تلاع العلي في شهر كانون الأول، جذبتني بلياقتها البدنية العالية، واستطعت أن أكون معها صداقة، تبادلنا أرقام الهواتف، وجلسنا مرات عديدة نتبادل أطراف الحديث، كانت حبابة كثيراً، في أحد الأيام دعوتها إلى تناول فنجان قهوة في إحدى المقاهي، جلسنا قرابة الساعة والنصف كان الحديث معها مسلياً، منحنا المزيد من الثقة بعضنا ببعض.

لم يُشغل فكري كثيراً في كاساندرا بالرغم من سرعة تطور علاقة الصداقة بيننا، بالقدر الذي بدأ يُشغل بشخصية انتماء، أتذكر أول يوم عمل لها في القسم، طلبت من مروان إضافتها على مجموعة الواتساب الخاصة بموظفي القسم، وخزنت رقم هاتفها، واحتفظت هي برقم هاتفي، من يومها كنت أتابع حالاتها التي تضعها على الواتساب.

عندما كنا نتبادل الحديث عن قراءاتنا في الروايات قالت لي: أرسلت لك طلب صداقة على الفيس بوك، حتى أبقى أتابع كتاباتك ومنشوراتك، عندما استعرضت طلبات الصداقة، وجدت أن صفحتها باسم أُرْجُوان، وكان سؤالي لها لماذا أُرْجُوان؟ لماذا لم يكن اسمك الشخصي؟

إجابتها كانت منطقية، لا تريد كل من يعرفها أن يرسل لها طلب صداقة، وأنها ترغب أن تكون قائمة أصدقائها مغلقة، مكونه من أشخاص تعرفهم على الحقيقة، ولتتخلص من بعض الازعاجات والتحرشات التي تكثر في مواقع التواصل الاجتماعي.

قلت لها هل تمانعين من أن أناديك أُرْجُوان؟

لا، أنا أحب هذا الاسم.

خلال الشهر الأول من عمل أُرْجُوان معنا في القسم كنت قد فهمت شخصيتها، وأعرف ما تحب وتفضل، وأعرف الكثير عن أسرتها، وأشقائها الثلاث الذين يعملون في الخليج.

بعد أن تركتها في المستشفى مع أسرتها عاودت الاتصال بها مساءً، استفسر عن حال والدها، أخبرتني بأن وضعه الصحي مستقر، وفي اليوم التالي اتصلتُ بها أُخبرها أنني سجلت لها إجازة ثانية لتبقى بالقرب من والدها، وعاودتُ الاتصال بها الساعة الثالثة مساءً وأخبرتني بأن والدها بحالة ممتازة، وقرر الطبيب أنه سيخرج من المستشفى يوم غدٍ.

ظُهر اليوم التالي عُدت إلى الاتصال بأُرْجُوان أستفسر عن صحة والدها، فأخبرتني أنه غادر المستشفى وأنه بحالة صحية جيدة، هنأتها على سلامته.

بعد انتهاء وقت عملي الساعة الرابعة مساءً غادرت البنك مسافراً إلى العقبة.

مع اقتراب وصولي إلى منزلي جاءني اتصال من أُرْجُوان، توقفت جانب الطريق لأرد عليها، وقد انتابني القلق على والدها، قد يكون حدث له مكروه، وإلا فلماذا تتصل بي، تفاجأت أن اتصالها كان لتطمئن عليّ، وتسألني هل وصلت إلى العقبة؟

عجباً! هي قدرت وقت وصولي إلى العقبة واتصلت في هذا الوقت! أجبتها نعم أنا على وصول إلى منزلي، وسألتها عن صحة والدها؟

قالت: إنه بحالة ممتازة، وأنه يشكر لي موقفي معها في ذلك الظرف الصعب.

قلت هذا واجبي، وأني أرغب في زيارته مساء يوم الاثنين من الأسبوع القادم في منزلكم، إن كانت ظروفكم مواتية.

رحبت برغبتي، وأنهينا الاتصال بتبادل السلام.

سيلين
قلب وامرأتان

أحياناً يشعر بنشوة السعادة عندما يتذكر لقاءه الأول بها، وأحياناً يتمنى لو أنه لم يلتق بها أبدا، حادثني كثيراً بحالة "الا أعرف" التي يعيشها، قال مرة: إنه يقدس حياته الزوجية، ولا يريد أن تتعكر علاقته بزوجته، وأن زوجته هي الطاقة التي يستمد منها قوته في هذه الحياة، وأن أسرته الصغيرة هي كل ثروته.

وفي كل مرة يحادثني فيها عن زوجته وأسرته، يشرد به الخيال والتأمل ويخرج من حديثه ليعاود الحديث عن نصف الروح، من خلال الحوارات الكثيرة التي دارت بيننا استطعت أن أتلمس مشاعره، وأن أصل من خلالها إلى دفائن قلبه، وجدت هناك امرأة ليست كباقي النساء.

كيف لا أجد وأنا أضم بين جوانحي قلب امرأة، ومهمتي الأخذ بيده للخروج من هذه الحالة المرضية التي أصبحت داء العصر.

منذ الجلسة الأولى التي حضر فيها إلى عيادتي شخصت حالته المرضية، "متلازمة تنامي شعور الفقد" حالة مرضية نفسية تصيب الرجال فوق سن الأربعين، خلقتها لنا التطورات الحديثة في مجالات ووسائل الاتصال والتواصل.

كثير من المرضى الذين يصابون بهذه الحالة المرضية يتخطونها دون أن يحتاجوا إلى أي تدخلات خارجية سواء كانت علاجية، أو نصائح

الأصدقاء والمعارف، ففي هذه الدرجة من الحالات المرضية لا تتعدى مراحل المرض تبادل نظرات الإعجاب التي تصحبها التنهدات النفسية والتخيلات السريعة العابرة التي تزول آثارها مع تغير المشهد البصري فوراً.

لكن هذا ليس دائماً؛ فهناك حالات مرضية تتطور لتنتقل إلى تفاعل جسدي نتيجة العلاقات المتسارعة بين أطراف العِلاقة، وتسفر عن علاقات زواج، أو علاقات غير مشروعة خارج الرابطة الزوجية، تنتهي غالباً هذه الدرجة المتطورة من الحالة المرضية باستعادة مشاعر الحنين أو الندم، وكثير من حالات الزواج التي تنتج عن تفاقم هذه الحالة المرضية تنتهي إلى الطلاق.

في العامية يطلق على هذه الحالة (النزوة) ومن سماتها أنها دائماً ترتبط بفترة زمنية مؤقتة تطول أو تقصر لاعتبارات أخلاقية أو تبعات مالية مؤثرة.

لكن أكثر هذه الحالات تعقيداً هي الحالة التي تمتنع فيها أطراف العِلاقة من الانجراف في تيار بناء علاقة غير مشروعة، وتتحدد بعقبات كبيرة تمنع السير في اتجاه تطوير هذه العِلاقة إلى علاقات زوجية مشروعة، تتحكم في صعوبة تكوين أي من هاتين الحالتين ضوابط دينية أو أخلاقية أو حتى شخصية، تعتمد في زيادة حضورها مشاعر التقدير والاحترام وتعظيم مكانة الطرف الآخر في اشتعال هذه العِلاقة.

وهذه هي الحالة التي يعانينها مريضـي، ولم تفلح جلسـات العلاج المكثفة في إخراجه منها، ولم تكن لدي وسـيلة حتى أشـغل تفكيره في تلك الفتاة إلا من خلال الغوص أكثر فأكثر في هذه العِلاقة وصـولاً إلى نقطة الانقلاب الفكري في مركزية هذه العِلاقة في نفسه.

لم تكن أمامي وسـيلة سـوى حثه على إخراج مشـاعره النفسـية المكبوتة على الورق، فطلبت منه العمل بشـكل متواصـل على كتابة كل ما يجول في خاطره عن هذه العِلاقة العاطفية في دفتر يرافقه أينما ذهب، ولا يتردد في مباشـرة الكتابة بعفوية عند كل لحظة شـعورية تفور فيها مشاعره النفسية.

على هذا تقرر أن تكون جلسـات العلاج على فترات زمنية أطول من تلك التي كنا قد اتبعناها في المرحلة العلاجية الأولى.

في كل جلسة يحضر فيها إلى عيادتي لمتابعة حالته المرضية كان يضع بين يدي ما كتبه عن مشاعره تجاهها.

وكل ما قرأت له شـيئاً كنت ألتمس حرارة مشـاعره المسـطرة على الورق.

في كل فقرة يكتبها كان يقف على ذكر زوجته، وقداسـة علاقته بها وبأسرته.

لا يتحدث عن أخلاق أو محددات العِلاقة، بل يتحدث عن مشـاعر تتنامى، وعن سلوكيات تزداد انضباطاً.

فجوة كبيرة تتسع كل مرة بين ما توحي له مشاعره تجاهها، وما يقيده به سلامة عقله ونضج تفكيره.

كتب على ظهر الصفحة:

"يملك الواحد منا مفتاح عالمه الداخلي، بين رحابة السعادة وضيق القلق، ينسج كلٌّ منّا حوله محيطه النفسي الذي يطوّقه، وهو وحده من يقرر البقاء في ذلك المحيط أو الخروج منه. أما أنا، فلا أترك للحزن لحظة واحدة ينفذ فيها ويعكر صفوي، أبواب السعادة مشرعة، ونوافذها مفتوحة على مصراعيها، أزرع فيها بذور الفرح، وأسقيها بماء الأمل، حتى تورق وتزهر، وتملأ جنبات روحي بنبض الحياة".

انتماء

نوايا ومقاصد

كانت نهاية الأسبوع ثقيلة على كل أفراد أسرتنا، حتى أشقائي خارج البلاد شُغلوا بمرض والدي، ولم يمنعهم من الحضور غير إصرار والدي على بقائهم في أعمالهم، وطمأنهم على صحته، حضر أعمامي واثنان من أبنائهم عند علمهم بدخول والدي إلى المشفى لزيارته والبقاء إلى جانبه في الليلتين التي قضاهما في المستشفى، واضطروا للمبيت في شقتنا، وحتم علينا واجب الضيافة أن نعد لهم العشاء ليلة الأربعاء، ومن ثم الغداء والعشاء يوم الأربعاء، والغداء يوم الخميس بمناسبة خروج والدي من المستشفى، فعلى ما نحن فيه من قلق على صحة والدي، اضطررت أنا وشقيقتي أريام للبقاء في المنزل للضلوع بهذه المهمة التي لم تكن على بال إحدانا وخاطرها.

صحيح أن مشاعر أعمامي وأبناءهم على صحة والدي كانت محل تقديرنا واحترامنا، لكن قضية استضافتهم في هذا الظرف كانت عبئاً كبيراً علينا.

وما إن عادوا إلى القرية مساء يوم الخميس، حتى حضرت عمتي، برفقتها ابنها وابنتها، وفرض علينا تحضير طعام العشاء ترحيباً بزيارتهم، وأمضوا ليلتهم في بيتنا، وغادرونا صباح يوم الجمعة، ساعتها التقطنا أنفاسنا أريام وأنا، وعادت حياتنا الطبيعية إلى مجراها.

مبيت أعمامي وأبناءهم في منزلنا كان بحد ذاته من أكبر وأثقل الصعاب التي واجهتنا خلال مرض والدي، منزلنا ليس مهيأ لمثل هذه الظروف، منزل في عمارة سكنية مصمم لخدمة أفراد الأسرة، غرفتين للنوم، وغرفة معيشة، ومطبخ، وحمام، وغرفة ضيوف لا تزيد مساحتها عن ستة عشر متراً مربعاً مؤثثة بطقم كنب.

انقسم ضيوفنا للمبيت في غرفة الضيوف وغرفة المعيشة، ولم يتح لنا أريام وأمي وأنا أن نغادر غرف نومنا طيلة ليال إقامتهم عندنا.

مساء يوم الجمعة حضر اثنان من أخوالي للسلام على والدي والتهنئة بسلامته، وغادرا بعد ساعة، وتعاقب بعض الجيران والجارات لزيارتنا والتهنئة بسلامة والدي، لم يُكتب لوالدي أن ينعم بالراحة إلا ليلة السبت، نام تلك الليلة نومة مريحة لا إزعاج ولا حاجة إلى الجلوس برفقة الزوار، ومجاملتهم.

أمسية ذلك اليوم، تذاكرنا موقف آصف الذي اعتذر عن الدخول إلى غرفة والدي في المستشفى، وأدركنا حقيقة الضغط الذي يعانيه المريض وأهله في مثل هذه الظروف من عبء زيارات الأقارب، كيف لا نُقدّر وقد أمضينا أريام وأنا تلك الظروف الصعبة في المطبخ لتحضير الطعام.

لو كان الأمر مقصوراً علينا ثلاثتنا لكنا أحضرنا طعاماً جاهزاً، وبقينا قرب والدنا المريض وانتهى الأمر.

ليلتها جاء دور المحققة أريام، وتفرغت للتحليل والاستكشاف، كان حديثها عن آصف، قالت إنها ما كانت تتوقع مشاهدته برفقتي ورفقة جود عند باب القسم في المستشفى، وكيف بدر لذهنه أن يُحضِرَكِ بسيارته للمستشفى، وكيف بدر له اصطحاب جود معكم، لكن من يعرف أهل البادية لا يستنكرُ عليهم بديهتهم وقدرتهم على التجاوب مع المواقف بسرعة وحذر! أخبرتها حينها أنه يرغب في زيارة والدي مساء يوم الاثنين.

قالت: هل أخبرتِ والدي بذلك؟

غداً أخبره.

قالت أريام: إنها تشك في زيارة عمتي أم عبد الحميد وابنتها وابنها، فالزيارة لم تكن بقصد عيادة والدي فقط، وأن وراء عمتي مصلحة من هذه الزيارة، سألتها، هل قالت لكِ شيئاً؟ أو لمحت عن شيء؟

قالت: لا، لكن لماذا رافقتها ابنتها الكبرى، وابنها خالد الذين لم يسبق لهم زيارتنا في أي مناسبة من قبل.

وهل نسيتِ أن خالداً أرمل من عامين! وأن عمتي هي من تربي ابنه الوحيد.

يبدو أن عمتي وابنها وابنتها حضروا لرؤيتنا، بحثاً عن عروس لخالد.

قلت لها: ما كنت أتوقع أن خيالك واسع لهذا الحد! تركت كل بنات القرية، وجاءت لنا في الزرقاء!

عادت أريام لتقول إن عمي أبو ياسـر شـاور والدي في خطبة ابنه محمد، ودعاه إلى حضور الجاهة بعد أسبوعين، في القرية، وقال له: إنها فرصة يزور فيها القرية، ويمضي فيها يومين أو ثلاثة، مع أشقائه وأبنائهم، ورفاقه القدامى.

واعتقد أن الفكرة راقت لوالدي، وأنه سـيذهب ويشـاركهم حفل خطوبة محمد، فإذا عزم على ذلك لا بد أن نرافقه، لأنه لن يتمكن من قيادة السيارة، ولن يكون لكم خياراً إلا أن أقودها بكم.

آصف

نافذة على الذاكرة

وصلت منزلي الساعة التاسعة مساءً، وكعادتها ولوش، استقبلتني على باب المنزل، وكانت في أحلى ما تكون عليه زوجة في استقبال زوجها، حتى أبنائي سلافة وفيصل، في أحلى حللهم، تناولنا العشاء، تبادلنا الحديث، أسألها عن عملها، وتسألني عن أسبوعي كيف قضيته، وعادت بنا الذكريات إلى يوم لقائنا الأول، زرتهم يومها لحضور خطبة شقيقها الأصغر جهاد، بعد إصرار عمي فيصل على حضوري، ومشاركتهم هذه المناسبة التي سيقيمها في منزله بقريتنا الصغيرة الهادئة على بوابة مدينة العقبة.

أتذكر تلك الليلة الجميلة التي كانت مليئة بالفرح، اجتمع في منزل عمي فيصل، أعمامي وأبناؤهم، بعد الانتهاء من مراسم خطوبة جهاد وعقد قرانه، تناولنا طعام العشاء الذي أعده بهذه المناسبة، سبعة سدور منسف، قدمت للحضور الذين رافقوه في جاهة الخطبة.

كان عمي واقف على رؤوسهم مرحباً بهم، وشاكراً لهم مشاركته هذه المناسبة، وأبناؤه يقدمون الشراب والخبز لكل من يريد أن يستزيد، وأخذت قطع لحم الضأن تتفتت في أيدي الضيوف، وتتشبع حبيبات الأرز بشراب الجميد المطهو مع لحم الضأن، وخبز الشراك مرة يقطع ويشرب مع الأرز، ومرة يغمس في الشراب ويلتهم، وتلحقه لقم الأرز

المشبعة بالشراب المخلوطة باللحم، تسامروا ساعة بعد العشاء، وتفرقوا إلى منازلهم ولم يبق إلا أنا وعمي فيصل.

وجد عمي في فرصة انفراده بي مدخلاً للحديث عن الزواج، قال: إلى متى ستبقى أعزب يا عمي، الشباب في جيلك أصبح عندهم حفدة، وظيفتك ممتازة، وأنت شب بتمام صحتك! ماذا تنتظر؟

حرك كلام عمي فيصل مشاعري، وأيقظ في نفسي هواها، لم أستطع أن أرد عليه إلا بقولي لن أتزوج قبل أن يكون عندي بيت وسيارة وكل تكاليف الزواج، لن أستدين حتى أتزوج.

قال لي كم استطعت أن توفر كل هذه السنين من عملك؟ وإذا رغبت أن تشتري منزلاً أين تريد أن تسكن؟

قلت له أريد شراء منزل مناسب أو شقة سكنية في العقبة، أو هنا في القرية، حتى أكون قريباً من مركز عملي الذي سأنقله من عمان حينها.

وكم تدخر لشراء الشقة؟

المبلغ الذي وفرته يكفي لذلك، لكن عليّ الانتظار حتى أتمكن من الحصول على الترقية الوظيفية، ثم يمكن أن أنقل عملي إلى العقبة وأنا مرتاح ومطمئن على مستقبلي الوظيفي.

قال: معنى ذلك أنك حتى لو تزوجت هذا الوقت ستبقى مقيماً في عمان مدة عام أو عامين.

نعم.

قال لي: أنصـحك يا بني أن تتزوج وتسـكن في عمان، وخلال هذه المدة تكون بنيت لك منزلاً في القرية. وهذا أفضل من شراء شقة سكنية في مدينة العقبة، سعر الشقة هناك يساوي بناء منزل مكون من طابقين في القرية، فإذا اقتنعت في هذا الرأي فكر في الزواج ولا تنتظر أكثر من ذلك.

حضـرت زوجة عمي وشـهدت آخر ما قاله، وأثنت على كلامه بأنها مستعدة للسعي في زواجي سعيها في زواج أبنائها، شكرتهما، وقلت: متى عزمت على ذلك سأخبركم.

رد عمي قائلاً: إن شاء الله نسمع منك الأخبار الطيبة.

اسـتيقظ عمي لصـلاة الفجر صـباح اليوم التالي، واصـطحبني معه لمسجد القرية، وما إن قضينا الصلاة وخرجنا عائدين لمنزله حتى أخبرته أني عزمت على الزواج.

قال: هذا الكلام الذي يشـرح الخاطر ويثلج الصـدر، هل هناك من تراها تصـلح لك زوجة نخطبها لك، أم تريد زواجاً شـعبياً تسـعى لك زوجتي فيه.

قلت: أريدها من القرية، شريطة أن تكون متعلمة، ولا تصغرني كثيراً.

قال: إن شاء الله تلقى نصيبك.

زف عمي الخبر لزوجته مع وصولنا المنزل، وقال لها: الباقي عليك، أعمامه عندهم بنات في سن الزواج، وجيراننا عندهم بنات، وابننا ما شاء الله عليه، تخيري له أحسنهن. حتى نخطب له في أسرع وقت.

قالت أم فهد: لا أبحث له عن زوجة وعندي بنات في سن الزواج.

دُهش عمي وشعر بالإحراج.

تداركت أم فهد الموقف وقالت: يا بني عند عمك أبو فهد بنتين، الأولى أنهت دراستها من ثمان سنوات وبعدها ما توظفت، والثانية باق عليها فصل وتتخرج في الجامعة. شاور نفسك وإذا لم يناسبنك نزور عمك أبو عماد، عنده بنت تخرجت العام الماضي في الجامعة.

فكر في الموضوع هذا مستقبلك.

قلت لعمي: بنتك الكبيرة كم عمرها؟

ردت أم فهد قائلة: منوة، عمرها ثلاثون سنة، درست رياضيات في جامعة الحسين في معان.

انزعج عمي من كلامها ووجه كلامه لها قائلاً: هذا توريطاً ليس تزويجاً.

قالت لي: اسمع مني، بنتي منوة مناسبة لك.

وقالت لعمي: يراها آصف ويقرر، هذه سنة الله وعادت الناس.

جلس عمي يحوقل، ويضرب كفًا بكف، مغتاظًا من زوجته، ويُصبّر نفسه على زوجته احترامًا لوجودي بينهم.

أعجبني كلام أم فهد، قلت في نفسي رأيها موافقًا لتسرعي في اتخاذ قرار الزواج، لأنني لو أعدت التفكير، أو تريثت قليلاً قد أغير رأيي.

قلت لعمي: إن كنت تراني زوجًا مناسبًا لبنتك منوة فأنا أريدها زوجة.

قال اجلس يا بني، يكفي زوجة عمك!

قلت له: إن قبلت وقبلت منوة بالزواج حتى أخبر أعمامي يحضرون مساء اليوم نخطبها. سكت عمي قليلاً، وقال: أم فهد اذهبي شاوري منوة. ووافقت على الزواج، وعقدنا قراننا في ذلك اليوم.

قالت ولوش: يوم زرتنا لحضور خطبة أخي، لم أكن أعرفك، في صبيحة اليوم التالي أيقظتني أمي من النوم، لتقول لي عريسك ينتظر ردك على طلب الزواج، كانت مفاجأة! لم أدرِ ما أقول! ولم تترك لي أمي أي مجال للتفكير، قالت: سأخبرهم أنك موافقة، وخرجت. أنا وشقيقتي ننظر إلى بعضنا في دهشة وصمت. عادت أمي بعد لحظات وقالت مبارك، ونحن ننظر في وجوه بعض وسألتها من العريس؟

قالت: آصف. خطبك من أبيك، واليوم سيعقد قرانكم، وقرروا إقامة يوم زفافكم في نفس يوم زفاف جهاد. كانت أحداث خطبتنا مفاجئة

للجميع، حتى أعمامي الذين حضـروا مسـاء ذلك اليوم وشـهدوا عقد القران. لكن للحق، كانت أفضل مفاجأة في حياتي.

نهضت ولوش يثقلها الحمل وكثرة حركة الجنين في بطنها لرفع مائدة عشاءنا، وأخذت تدور بي الأفكار وتتصارع الأسئلة، هل زواجي بولوش قدر مكتوب؟ حين جاء وقته اكتمل، لهذا انسـجمنا في حياتنا الزوجية، ونعد أنفسنا من أسعد الأزواج.

أم أن الحياة الزوجية هي نفسـها تخلق الروحانية وتتطور فيها العواطف الإنسـانية، وإن حرص الأزواج على تحييد التحديات اليومية التي يمكن أن تعيشـها الأسـرة هو سـبب تفاهمهم، وإن إدراك أحدهم تطلعات الآخر وتفهمه لها يعزز قيم الاحترام بينهم، وإن التزامهما تجاه مسـؤوليات الأسـرة يخلق حباً أكثر اسـتدامة من اسـتهلاك المشـاعر في قصص الحب قبل الزواج.

قطعت ولوش حالة الشـرود الذهني التي كنت أعيشـها، وقالت: ما رأيك أن نسـهر ليلة غد على شـاطئ البحر في العقبة، لأنك منذ انتدابك للعمل في عمان لم تصحبنا إلى أي مكان.

وافقت فوراً واتفقنا على قضـاء أمسـية يوم الجمعة في التسـوق والتجهيز لمولودتنا المنتظرة ومن ثم الجلوس في أحد المقاهي الممتدة على طول الشاطئ.

سيلين
ذاكرة تتوقد

يذكر لي في كل جلســة أنه في حالة تصــالح مع ذاته، ويؤكد بين حين وآخر أن طفولته كانت طفولة عادية كحال بقية أقرانه في تلك القرية التي ولدت بميلاده. كما كان يحب والده أن يحدثه عن تأسيسها.

قال له: أكثر قرى البدو في الجنوب نشــأت قريباً من النصــف الثاني من ستينيات القرن، وبين وقت وآخر كانت تتكون قرى جديدة تضـم في الغالب قبيلة من قبائل البدو الذين يقررون ترك حياة البداوة، ويلجأون للاستيطان سوياً في مكان واحد يضمهم جميعاً، بعد تشجيعهم من قبل المؤســســات الحكومية على الاســتيطان لتتمكن من تقديم خدماتها التعليمية والصـحية التي يصـعب تقديمها لهم في مضـاربهم الصـحراوية المتفرقة دائمة التغير.

حدثني عن معاناة والده الذي أخبره قصة دراسته في مراحلها الأولى في خيمة متنقلة، كـان معلمهم يصـطحـب قبيلتهم في ترحـالهم أينمـا توجهوا.

قـال: اســتكمل والدي مراحل تعليمه في مدرســة إحدى القرى الجنوبية التي تتبع لمؤســســة الجيش، حتى وصــل إلى الصــف الثالث الإعدادي الذي كانوا يســمونه المترك، ثم غادر القرية للعمل في مدينة

العقبة، عمل في كل شيء يمكنه أن يدر عليه دخلاً، ولما لم يشعر بتحسن أحواله قرر الالتحاق بالجيش، الذي خدم فيه حتى التقاعد.

قال: إن موقع قريتهم التي بدأت ببيوت قليلة بداية السبعينيات بمحاذاة الطريق الصحراوي كان مناسباً للاستيطان من قبل قبائل بدوية مختلفة؛ فساعد ذلك في اتساعها على نحو سريع بالنسبة للقرى الأخرى المتناثرة في البادية الجنوبية، مما مكن الحكومة من توفير خدماتها بشكل مناسب.

فمع توسع القرية تأسست أول مدرسة كانت تتكون من غرفتين، غرفة تستخدم سكناً للمعلم، وغرفة لتدريس صبيان القرية، تطورت المدرسة تدريجياً مع تطور القرية وتوسعها العمراني وتزايد أعداد مستوطنيها من البدو، الذين ضاقت بهم تكاليف الحياة ولم تعد تربية الأغنام توفر لهم الدخل الكافي لمعيشتهم.

تحدث عن أول عيادة أسستها وزارة الصحة في قريتهم. وعن أول ممرض من الأهالي دُرِّب في مستشفيات وزارة الصحة للقيام بمهام التمريض وإدامة عمل العيادة. تحدث عن بعض شباب القرية الذين كانوا يلتحقون تباعاً بدورات تأهيل الممرضين في وزارة الصحة ثم يلتحقوا بوظائف وزارة الصحة. حدثني عن أول فتاة من صبايا القرية سارت في طريق أقرانها وعملت ممرضة في مركز صحي القرية.

حدثني عن أول مخبز تأسس في القرية، بدأت أعماله بخبز العجين الذي تحضره نساء القرية في منازلهن، ثم تطور إلى أن أصبحت كل مراحل الخبز تنجز في ذلك المخبز، الذي يقوم عليه رجل واحد من الأشقاء العرب من الجنسية المصرية.

قال: أخبرني والدي أن أول أمر الناس في القرية كان باستخدام الفوانيس للإضاءة، ولاحقاً اشترك الأهالي في مجموعات، كل مجموعة اشترت مولداً كهربائياً يعمل على وقود الديزل، ومن ثم تدخلت الحكومة ومدت شبكات طرق وشبكات مياه وشبكات الكهرباء، لم يكن ذلك بين ليلة وضحاها، كان التطور متدرجاً لكن بوتيرة متلاحقة، كان المواطن يلمس يد الدولة في كل شؤون حياته.

قالوا إن القرى الأردنية نعمت بالخدمات الحكومية في وقت لم تنعم به مدن كبيرة في عديد من الدول العربية الأخرى.

الأردن لم يكن يملك النفط، ولا الثروات الطبيعية التي تكسبه ميزة الدولة الغنية.

كان بلداً فقير الموارد، لكنه كان غنياً بالعقول المفكرة والعزائم العاملة.

كان يمتلك قيادة إدارية تعرف ماذا تريد، وكيف تحقق ما تريد، ومتى تفعل ما تريد.

لم أكن أشك أن مريضي في جلسات العلاج يتشعب في الحديث عن أي موضــوع لأنه في حالة (التكوين العكس) التي تعد واحدة من الحيل الدفاعية اللاشعورية للحد من رغباته النفسية في الحديث عن فتاته.

كان يسترجع الحديث عن ذكرياته مع والده ويتذكر تفاصيل حكاياته له ليجعل منها مادة لإضاعة وقت الجلسة العلاجية.

لاحظت أن مريضــي لم يكن يعيش صــراعه الأكبر داخل بيته أو في قلبه وحده، بل كان يتعايش مع تناقض أوسع بكثير، صراع مع مجتمع لم يعد يشبهه، ولم يعد يشبه حتى نفسه.

كان يتحدث عن قريته باعتزاز ظاهر، لكنه يتهرب، دون وعي، من الحديث عن روحها الجمعية الضــاغطة، عن قوالب التفكير التي تُفلت من كل تحديث وتســتقر في أعماق أبنائها مهما ارتفع تعليمهم أو ارتقت وظائفهم.

لقد نشأ في بيئة تحوّلت عمرانياً بسرعة، دخلتها الكهرباء، المدارس، المراكز الصــحية، المخابز، ومفردات الدولة الحديثة، لكنّ هذا التمدن لم ينعكس على بنية التفكير كما ينبغي.

فما زالت العِلاقات الاجتماعية قائمة على المراقبة الدائمة، والصــورة الجماعية، والالتزام الصــارم بمفردات "ما يليق" و"ما لا يليق"، لا بما يحتاجه الإنسان في عمقه النفسي.

ما أثقل كاهله لم يكن الحب ولا الحنين، بل الخوف من البوح؛ لأنه يعيش في مجتمع جميع أفراده يحاولون تكييف البيئة مع واقعهم، لا أن يكيفوا واقعهم مع البيئة، فأصبحوا في صراع دائم غير معلن مع بيئتهم.

هذه الظروف مسؤولة عن حدوث اضطرابات شخصية للفرد في مجتمعه، مجتمع لا يمنح الرجل حرية التعبير عن قلقه أو ارتباكه أو عاطفته إلا إذا غلفها بالقوة أو الصمت أو المبالغة في التحكّم، ورغم نضجه ووعيه وذكائه العاطفي، ظلّ أسيراً لصورة "ابن فلان" و "ابن العشيرة" و "موظف الدولة"، الصور التي تحدد السلوك المسموح، وتمنع السؤال الداخلي من أن يجد له صوتاً واضحاً.

كان يشعر بالذنب لا لأنه ارتكب خطأً، بل لأنه تجاوز المسموح شعورياً في بيئة لا تتسامح مع الاضطراب العاطفي، ولا تحتمل السؤال العميق.

لقد أيقنتُ أن قريته كما وصفها بدقة، تقف على طرق معبّدة، لكنها ما زالت تسير بعقل بدوي قديم لا يسمح كثيراً للإنسان بأن يكون ذاتاً متفردة، بل يريده امتداداً لجماعته، وواجهةً لأسرته، ولافتة لسلوك العشيرة.

كنت في كل مرة يسلمني فيها الدفتر الذي كتب به عن مشاعره تجاهها أجد فيه تنامي شعور الفقد في مراحل متطورة لا مراحل تعافي أو فتور.

وجدت أن استرجاعه لذكرياته ونشأته هي إحدى أهم الأسباب التي تُمركز علاقته العاطفية بتلك الفتاة.

فالتربية المنضبطة التي نشأ في أجوائها وصرامة العلاقات في بيئة القرية كان لها انعكاساتها على علاقته الاجتماعية بهذه الفتاة، والسبب في البقاء في زاوية التأمل النفسي حتى لا يخرج عن حدود تربيته وقناعاته الشخصية التي تنامت معه في مراحل عمره المتتالية، وأصبحت أكثر إلزامية في نظره وهو في سن متقدم ورب أسرة.

مريضي ليس حالة استثنائية، هو انعكاس لواقع واسع من الرجال الذين يعيشون بين جدران من الحداثة المادية، لكنهم محاصرون بجدران صامتة من العيب والحرج والخوف من الحقيقة، وما يكتبه ليس مجرد حكاية رجل أحب في غير وقته، بل شهادة رجل بدأ يفهم نفسه حين قرر أخيراً أن يتكلم.

انتماء

أين أنت؟

مطلع العام الجديد كنت قد تلقيت التدريبات اللازمة في مجال عملي الجديد، طلبني رئيس القسم إلى مكتبه وقال: أُرْجُوان، سأكلفك مهمة دقيقة جداً تعتمد على قدرتك على كتمان إجراءات تنفيذها.

انتابني القلق من كلامه؛ لأنني كنت متخوفة من ضعف مهارتي في عملي الجديد.

لكن لم يكن أمامي إلا إجابته بالقبول.

قلت: مستعدة، إذا كنت سأقوم بهذه المهمة تحت إشرافك.

قال: سنعمل سوياً على إنجازها.

طلب مني الجلوس على كرسيه واستخدام جهاز الحاسوب الخاص به لفتح نظام الرقابة على القطاع الاستثماري باستخدام مفتاح الدخول الإلكتروني الشخصي الخاص بي، وعند فتح النظام، طلب مني إصدار تقرير الحوالات المالية وحركات الصرف والإيداع الخاصة بشركة رواد التصنيع النانوي، وإصدار تقرير كريف للشركة، وتخزينها في مجلد باسم الشركة في جهاز الحاسوب.

بعد أن نفذت ما طلب مني قمت وجلست على المقعد أمام مكتبه، شكرني، وقال: هذه الشركة الاستثمارية من الشركات الرائدة في أعمال

التصنيع ضمن تقنيات النانو الصناعية، باشرت أعمالها الاستثمارية في الأردن في المدينة الصناعية، قبل حوالي ثلاث سنوات، بعد الاطلاع على سجل الشركة في مؤسسة الضمان الاجتماعي تبين أن عدد الموظفين فيها ثلاثون موظفاً بين مهندس وعامل.

المطلوب منك في المرحلة الأولى دراسة هذه التقارير مع تقارير بيانات الشركة في الضمان الاجتماعي، وبياناتها في وزارة الصناعة والتجارة، ودائرة ضريبة الدخل والمبيعات، وتقارير هيئة تشجيع الاستثمار، وإعداد تقرير الكفاءة الاستثمارية للشركة، على ألا تتأخري عن أسبوع في إعداد التقرير.

الآن سأعمل مشاركة لملف تقارير الشركة بين جهاز الحاسوب الخاص بي، مع جهاز الحاسوب الخاص بك، حتى أبقى على اطلاع لتطورات إعداد التقرير.

لم تكن دراسة التقارير المالية والاستثمارية ومجموعة البيانات الخاصة بالشركة بالأمر الصعب، خصوصاً مع توفر أنظمة تحليل مالي متطورة في البنك، تمكنت خلال المدة المحددة تحرير تقرير الكفاءة الاستثمارية للشركة، وسلمته لرئيس القسم على نظام التراسل الداخلي الخاص بموظفي البنك.

طلبني رئيس القسم لمناقشة التقرير، خلال المناقشة لم أشعر بحالة الارتياح التي كنت أشعر بها عادة عند الحديث مع آصف، وكأنه شخص مختلف.

لم تكن هذه المشاعر نتيجة مظاهر الجدية التي بدت واضحة خلال المناقشة، لكن شعرت برفض أو تحفظ على نتائج التقرير دون أن يعلن ذلك أو يقول كلمة واحدة تؤكد لي هذا الشعور.

لكن الغريب أنه شكرني على جهدي، وقال: سأرسل التقرير مع مصادقتي عليه لمدير الدائرة الاستثمارية.

في صباح يوم الثلاثاء حضر رئيس القسم إلى مكتبه، ووغادره بعد نصف ساعة، ولم يعد بقية اليوم.

ويوم الاربعاء حضر إلى مكتبه منذ ساعة العمل الأولى أربعة أشخاص، أغلقوا ورائهم باب المكتب ولم يخرجوا إلا قبل انتهاء وقت العمل بثلث ساعة، غادر برفقتهم مبنى البنك.

عادة كان آصف يسافر إلى العقبة بعد انتهاء عمله مساء يوم الخميس، لقضاء إجازته مع أسرته، إلا أنه ذلك اليوم لم يفعل لأننا غادرنا مبنى البنك نهاية يومنا، وهو جالس في مكتبه مغلقاً على نفسه الباب.

أنا وكل موظفي القسم بدأ ينتابنا القلق، من التغير المفاجئ في سلوك آصف، وانشغاله وكثرة اجتماعاته المغلقة، وتردده كثيراً بين مكتب مدير الدائرة الاستثمارية، ومكتب عطوفة نائب محافظ البنك، لكن من غير أن نصل إلى تفسير، ولم يغامر أي منا بالدخول إلى مكتبه وسؤاله عن هذا التغير.

صباح يوم الأحد وصلنا إلى البنك، وكانت المفاجأة أن آصف موجود في مكتبه.

عادة كان يتأخر يوم الأحد بعض الوقت، لأنه يكون قادماً من العقبة، وكان كل من وصل من موظفي القسم يدخل إلى مكتبه يسلم عليه ويخرج.

وعندما دخلت مكتبه وسلمت عليه لاحظت وجود العديد من كاسات الشاي والقهوة الفارغة في المكتب، فسألته ألم تسافر إلى العقبة نهاية الأسبوع؟

قال: لا، كنت مضطراً للبقاء في عمان واستكمال بعض الأعمال في مكتبي نهاية الأسبوع.

ما هذا العمل الذي يتطلب منك كل هذا التفرغ، والاهتمام؟

تبسم ولم يُجب.

عندها حضر موظف الخدمات لتنظيف المكتب

خرجت برفقته إلى مكتبي وقال: ليس كل ما يعرف يقال.

ما إن انتهى موظف التنظيف من عمله حتى عاد آصف إلى مكتبه، وأغلق على نفسه الباب حتى انتهاء وقت العمل، غادرنا وهو على حاله.

يوم الاثنين منذ ساعات العمل الأولى حضر مدير الدائرة وبرفقته ثلاثة أشخاص، دخلوا مكتب رئيس القسم وأُغلق الباب.

لا تبدو على وجوه موظفي القسم إلا علامات الاستفهام والاستغراب، وبدأت تظهر على السطح بعض التكهنات، والاستنتاجات، في محاولة لتفسير الحالة غير الطبيعية التي يمر بها رئيس القسم، وكثرة الاجتماعات وشبه العزلة التي بدأت سمة رئيس القسم خلال الأسبوعين الماضيين.

في اليوم التالي، حضر مدير الدائرة لمكتب رئيس القسم وبقيا قرابة الساعة، لحق بهما الأشخاص الثلاثة الذين كانوا معهم يوم أمس، جلسوا قرابة الساعة، ثم غادروا جميعا المكتب.

انتهى دوام ذلك اليوم ولم يعد آصف إلى مكتبه.

في اليومين التاليين لم يحضر آصف إلى العمل.

في نهاية يوم الخميس قبل أن نغادر مكان عملنا قرأنا على المواقع الصحفية الإلكترونية أخباراً صحفية تقول: إن هيئة مكافحة الفساد ضبطت قضية فساد مالي، وحركات غسل أموال تورطت بها شركة

استثمارية، بتعاون من بعض الموظفين الذين يعملون في القطاع المصرفي، وبعض المؤسسات الحكومية والخاصة.

أصابتنا حالة من الصدمة، وتنامت لدينا الشكوك أن يكون آصف متورطًا معهم!

حاولنا الاتصال بآصف لكن هاتفه كان مغلقًا.

مساء ذلك اليوم جاءت بعض الأخبار الصحفية على ذكر اسم المؤسسة الاستثمارية المتورطة بقضية الفساد، "شركة رواد التصنيع النانوي".

حاولت مساء يوم الخميس وطوال عطلة نهاية الأسبوع الاتصال بآصف للاطمئنان عليه وعلى حالي تجاه هذه القضية، لأنني قدمت تقريراً لصالح الشركة قبل ثلاثة أسابيع، وها هي اليوم متورطة بقضية فساد.

ساءت حالتي النفسية، وبدأت أشعر بالتوتر والقلق خوفًا أن يكون آصف متورطًا بالقضية وورطني معه.

لماذا لا يرد على هاتفه؟

لا بد أنه معتقل الآن! عزز لدي هذا الشعور حالة الانشغال التي صاحبته طيلة الأسبوعين الأخيرين حتى إنه لم يسافر نهاية الأسبوع لقضاء إجازته مع أسرته.

تواصلت مع مدير الدائرة أسأله عن صحة الأخبار المتعلقة بالقضية؟

أفادني بأن حيثيات القضية في عهدة هيئة مكافحة الفساد، ولا يوجد عنده معلومات تزيد عن تلك التي شاعت في الوسط الإعلامي، ولا يستطيع أن يتحدث عن أي تفاصيل بخصوص المتورطين في القضية، حتى تُستكمل التحقيقات.

اطلعت والدي على شكوكي تجاه القضية، وأخبرته بأنني قدمت لرئيس قسمي تقريراً مالياً يفيد بأن الشركة ذات ملاءة مالية ممتازة.

حدثته عن ملاحظاتي على سلوك وانشغال آصف المدة السابقة، واختفائه منذ منتصف يوم الثلاثاء، وأن هاتفه مغلق حتى الآن.

أعرف أن والدي في حالة صحية لا تسمح له التعامل مع مثل هذه المصيبة، لكن لم يكن أمامي من ألجأ إليه إلا والدي، فهو سندي وهو من يعرف أنني لا يمكن أن أُقدم على مثل هذا العمل الشائن.

طمأنني وقال: دعينا ننتظر حتى تتكشف الأمور بشكل واضح وحينها نتدخل، أما الآن فلا يوجد معلومات واضحة سوى تسريبات صحفية، ولم تصدر عن الجهات الرسمية أي توضيحات.

وصلت عملي يوم الأحد، كنت أتمنى أن أجد آصف في مكتبه، لكنه للأسف لم يكن موجوداً.

ولم يحضر ذلك اليوم، ولم يحضر في اليوم التالي.

عندها أصبحت شكوكنا في القسم تتجه لتوقع تورطه في القضية، سيما أن آخر التسريبات كانت تفيد بأن التسهيلات التي قدمت للشركة الاستثمارية كانت مبنية على تقارير مالية مضللة.

مساء يوم الاثنين صدر قرار منع النشر في قضية الفساد المتعلقة بشركة رواد التصنيع النانوي.

آصف
فوق الشبهات

وصل إلى القسم خطاب رسمي على نظام التراسل الحكومي، يتضمن إعداد تقرير كفاءة مالية لشركة رواد التصنيع النانوي، وهي شركة استثمارية حديثة في القطاع الاقتصادي الأردني، تطلب الحصول على تمويل مالي بقيمة خمسة ملايين دينار من ثلاثة مصارف تجارية أردنية، لتمويل أعمالها التصنيعية، وتلبية الطلب المتزايد على منتجاتها الصناعية.

إلى هنا لا يوجد شيء مستغرب، لكن الشيء الذي أثار انتباهي هو عدد موظفي الشركة الذي حصلتُ عليه من خلال الاستفسار عن بياناتها من مؤسسة الضمان الاجتماعي، فالعدد لا يتناسب مع حجم العمل الكبير الذي يمثله النشاط التصنيعي والتجاري للشركة.

أبلغت مدير الدائرة الاستثمارية بشكوكي تجاه الشركة، فأوعز لي بحرية التصرف واتخاذ الإجراء المناسب للتحقق، شريطة أن تبقى تحرياتي المالية سرية للحفاظ على سمعة الشركة حال ثبات سلامة مركزها المالي ونشاطها الاستثماري.

قررت أن أتعامل مع طلب الشركة بطريقتين مختلفتين:

الطريقة الأولى إعداد تقرير مالي يعتمد على البيانات المصرح عنها من قبل الشركة للجهات الرسمية.

الطريقة الثانية: تحليل تقارير النشاط التجاري ودراسة أوجه النشاط، وطلب معلومات تفصيلية عن الشركة من جهات خارجية في مراكز عملها خارج الأردن.

كلفت أُرْجُوان إعداد التقرير الرسمي الذي يستند إلى المعلومات المصرح بها.

بدأت أنا بالتحقق من نشاط الشركة، فوجدت أن الشركة تستورد مدخلات إنتاج معفاة من الرسوم والضرائب وتدخلها إلى حرم مصنعها ومن ثم تودعها في مستودعاتها في المنطقة الحرة، بعد ذلك تعيد تصديرها إلى بعض الدول في شرق آسيا وأفريقيا.

هذه الدول لا تصنف من الدول المهتمة بنظم تصنيع عالية الدقة وفائقة الجودة كما يجب أن تكون عليه طبيعة منتجات الشركة.

ثم إن الشركة تقوم بعمليات تصدير مباشر لمنتجاتها من السوق المحلي إلى تلك الدول.

من هنا تبيّن لي أن نشاطها التجاري التبادلي يُثير الشكوك، إذ لا يُعقل أن يتم إنجاز هذا الحجم من العمل بفعل عدد موظفي الشركة

الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثين موظفاً، ويعملون في مجالات متنوعة تشمل كل أوجه النشاط التصنيعي للشركة.

خلال المدة المحددة التي أمهلتُ فيها أُرْجُوان أن تُعد التقرير المالي زودتني بتقريرها الذي أثبت كفاءة الشـركة من الجانب المالي، وكانت التوصية بالموافقة على إقراض الشركة خمسة ملايين دينار.

خلال مناقشتي لها عن مضمون التقرير ونتائجه التي توصلت إليها رأيت أنها تغاضت عن تقييم موجودات الشركة، بحجة أن الشركة تتمتع بامتيازات استثمارية، وأنها تعمل تحت مظلة قانون تشجيع الاستثمار.

والملاحظة الثانية أنها لم تضع في حساباتها أن الشركة حصلت خلال السـنة السـابقة على تمويلات مصـرفية بقيمة ثلاثة ملايين دينار من مصرفين تجاريين للغاية نفسها.

من جهتي رفعت التقرير المالي بعد مصـادقتي عليه لمدير الدائرة الاسـتثمارية الذي كنت متفقاً معه سـلفاً على حفظ التقرير إلى حين اسـتكمال تحرياتي عن الشـركة، التي انتهت بكشـف تورط الشـركة في عمليات غسـل أموال، ونشـاط تجاري مزيف، لغايات الحصـول على مبالغ مالية من مصارف تجارية والخروج من الأردن.

إذ توافقت تحرياتي المالية عن الشـركة مع التقارير السـرية التي طلبناها من دائرة الجمارك، ودائرة ضريبة الدخل والمبيعات، ومؤسسة المناطق الحرة.

عندها أعددت تقريراً بحق الشركة، ونُوقِش مع مدير الدائرة الاستثمارية، وعطوفة نائب محافظ البنك، ورفع لمعالي محافظ البنك المركزي الذي بدوره أحاله إلى هيئة مكافحة الفساد.

في اليوم التالي وصل إلى مكتبي مندوب هيئة مكافحة الفساد، اجتمعت به بحضور مدير الدائرة وعطوفة نائب المحافظ، ووضعناه في صورة تحرياتنا والتقارير الرسمية الصادرة عن المؤسسات الحكومية بهذا الخصوص، تدارسنا القضية مع هيئة مكافحة الفساد على مدار عشرة أيام انتهت فيها مهمتنا في البنك بإحالة القضية بكافة تفاصيلها لهيئة مكافحة الفساد، بعد انتزاع الهيئة اعترافاً من المدير التنفيذي للشركة بتورط الشركة في إجراءات مالية مزيفة.

حتى تتمكن الهيئة من رصد تحركات المتورطين كلهم في قضية الفساد، اتفقنا على إطلاق فقاعة إعلامية مساء يوم الخميس القادم يسُرب فيها خبر تورط شركة استثمارية بقضية فساد وغسل أموال ونشاط تجاري مشبوه.

عندها طلبت من مدير الدائرة منحي إجازة رسمية، لا سيما أنني قضيت نهاية الأسبوع في عمان.

وافق، ومن مكتب المحافظ مضيت خارج البنك واستقليت سيارتي ووصلت إلى سكني وتناولت أمتعتي وغادرت إلى العقبة، كان الوقت ظهيرة يوم الثلاثاء.

وما إن اجتزت منطقة دوار الواحة حتى افتقدت هاتفي، كان آخر اتصال أجريته به مع زوجتي ولوش أخبرتها أني وصلت سكني وأني سأتناول أمتعتي وأتوجه إلى العقبة.

تركته على المنضدة وتناولت أمتعتي وخرجت وهو على حاله، قررت ألا أعود لأخذه، ومضيت في طريقي.

وصلت منزلي مساءً، كانت ولوش في حالة سيئة اضطررت أن اصحبها هي ووالدتها إلى المستشفى في العقبة.

وصلنا المستشفى وفي قسم التوليد عاينتها الطبيبة وحررت لها وصفة طبية وأخبرتنا أن موعد ولادتها لم يحن بعد، فعدنا إلى منزلنا.

قضيت إجازة نهاية الأسبوع، بلا هاتف ولا لاب توب، كان من المفترض أن أتوجه إلى عملي صباح يوم الأحد، لكن مع ساعة الفجر اضطررت لنقل ولوش إلى المستشفى، وما إن وصلنا قسم التوليد حتى أدخلوها غرفة الولادة، لم تمض نصف ساعة حتى خرجت لنا القابلة تبشرنا بأجمل مولودة.

اتصلت صباحاً بمدير الدائرة المالية عن طريق الهاتف الأرضي، أخبره بقدوم مولودتنا، وطلبت منه تمديد إجازتي يومين.

بقيت بالقرب من زوجتي طيلة يوم الأحد، اتفقنا على تسمية مولودتنا أُرْجُوان.

كان اتفاقنا أنا وولوش منذ حملها الأول أن يكون اسم البنت من حقي، واسم الابن من حقها، قلت لها اسم أُرْجُوان يملأ عليّ حياتي منذ مدة، ولم أصرح لها بأكثر من ذلك.

أُدرك تماماً لو أنها علمت بما وراء هذا الاسم لما قبلت به، وما كان قبلت باسم سلافة قبلها، ولكنها قلوب الرجال تأبى إلا أن تكون موطناً للحب والعشق وإن كان طريقه مستحيلاً.

عدت مساءً إلى منزلي، وصباح يوم الاثنين عدت إلى المستشفى للبقاء قرب زوجتي، قررت الطبيبة إخراج زوجتي وابنتي من المستشفى، وعدنا إلى منزلنا نطلب الراحة والهدوء، لكن لم ننعم بها، زيارات الجارات لم تنتهِ للحظة واحدة طيلة يومنا، ولم تذق ولوش طعم الراحة، نمتُ أنا، ولم تدع أُرْجُوان لأمها ساعة متواصلة من النوم.

صبيحة يوم الثلاثاء غادرت منزلي متوجهاً إلى عملي، وصلت البنك الساعة التاسعة.

عند دخولي القسم رأيت الاستغراب على وجوه الموظفين! جاءت مني التفاته صوب أُرْجُوان التي انهارت على مكتبها تبكي!

سألتهم ما بكم؟

ما بها انتماء؟

رد مروان قائلاً: ما سمعت بقضية شركة رواد التصنيع النانوي؟

قلت وما شأننا بها؟

قال: أين أنت منذ الثلاثاء الماضي؟

لماذا لم ترد على هاتفك كل هذه الأيام؟

توقعنا أن يكون أصابك مكروه!

الشائعات انتشرت بتورطك في قضية الفساد!

وانتماء كانت تعتقد أنها متورطة في القضـــية على خلفية التقرير الذي أعدته عن وضع الشركة الائتماني.

كل هذه الأحداث حدثت في غيابك.

توجهت إلى مكتب أُرْجُوان أريد التخفيف عنها، لكن لم تترك لي فرصـــة، أشـــرتُ إلى إحدى الزميلات أن تقف إلى جانبها، ودخلت مكتبي.

لحق بي مروان يستفسر عن قضية الشركة، قلت له دعني أقرأ ما كُتب عن القضية في وسائل الإعلام.

بعد اطلاعي على ما نشر عن القضية أدركت حجم مخاوف أُرْجُوان وقدّرتُ موقفها، وأن القلق الذي لحق بها كان بسببي، كان من المفترض أن أخبرها منذ البداية أن دورها كان روتينياً فقط لكي نتمكن من رصـــد

الإجراءات المتخذة من قبل موظفي المصـارف التجارية التي كان من المفترض أن تُقدِم التسهيلات المالية للشركة.

بعد ساعة حضـر مدير الدائرة المالية إلى مكتبي وطلب حضـور انتماء، وعندما لاحظ حالتها استفسر عن السبب، أخبرته أن شائعات انتشـرت بتورطي في قضـية التسـهيلات المالية الخاصـة بشـركة رواد التصـنيع النانوي، ولأنها عملت معي في إعداد التقرير الائتماني للشـركة تخوفت من أن أكون قد ورطتها معي، ولأني لم أحضـر للعمل منذ يوم الثلاثاء الماضـي، ولم يتمكنوا من التواصـل معي رجحوا تلك الشكوك وتوقعوا أنني قيد الاعتقال على خلفية القضية.

اسـتغرب! وقال: لم يسـألني أي من موظفي القسـم عنك. كنت أخبرتهم حينها بأنك في إجازة رسمية.

طمأن المدير انتماء وأخبرها أنه حضـر لمرافقتنا إلى مكتب عطوفة نائب المحافظ، بناءً على طلبه لمقابلة معالي محافظ البنك؛ لتكريمنا على جهودنا في كشف قضية الفساد التي تورطت بها الشركة.

عندها اسـتعادت أُرْجُوان عافيتها، لكن كنت أرى في عيونها نظرات تحميلي المسـؤولية عن الألم الذي لحق بها وعاشـت مرارته الأيام السابقة.

توجهنا ثلاثتنا إلى مكتب عطوفة نائب المحافظ الذي اسـتقبلنا بحفاوة وشكرنا على جهودنا في كشف قضية الفساد.

وقبل أن نغادر بمعيته إلى مكتب معالي المحافظ طلبت منه التكرم بالتنسيب في إنهاء انتدابي وإعادتي إلى فرع البنك في العقبة، وعد بطرح الموضوع أمام المحافظ.

مضينا أربعتنا إلى مكتب معالي المحافظ، الذي استقبلنا بحفاوة وشكر لنا جهودنا وقرر صرف حافز مالي لي ولأُرْجُوان، مع إصدار كتب شكر على جهودنا في التعامل مع القضية بحساسية ومهارة.

وقبل أن نودعه مغادرين مكتبه قال له عطوفة نائب المحافظ: السيد آصف يلتمس موافقتكم على فك تكليفه للعمل في رئاسة القسم وإعادته إلى فرع العقبة.

قال: لا مانع. كلف السيد مروان بإدارة القسم إلى حين عودة رئيس القسم، وبإمكان آصف الالتحاق بفرع العقبة اعتباراً من يوم الأحد.

غادرنا مكتب معالي المحافظ في غاية السرور، وعدت إلى القسم أنا وأُرْجُوان.

في المصعد اعتذرت منها على سوء تقدير الموقف، وأخبرتها أنني تركت جهاز الحاسوب المحمول في مكتبي عند مغادرتي البنك، ونسيت هاتفي في سكني، وأنني شُغلت في إجازتي بزوجتي، وأننا رزقنا بمولودة أسميتها أُرْجُوان.

أعاد الحديث الود بيننا، باركت لي بالمولودة الجديدة، ولم تبد أي ملاحظة على اختيار اسمها، وإن رأيت في ملامحها التعجب!

دخلنا القسم وعلامات السعادة على وجوهنا، واجتمع الزملاء ينتظرون مني إخبارهم بقصة الشركة وطريقة كشفي لتورطها بقضية الفساد، حدثتهم بالقصة والدور الذي قمت به بالتنسيق مع إدارة البنك، وهيئة مكافحة الفساد.

نهاية الحديث قالت أُرْجُوان للزملاء: آصف سينتهي تكليفه بالعمل اعتباراً من مساء يوم الخميس، وسيعود إلى عمله في فرع البنك في العقبة.

انتماء

شريكة التكريم

عند وصــولي إلى المنزل كانت الســعادة بادية على وجهي، عانقت أمي وأبي وأريام، أخبرتهم بقصة تكريمي، وأخبرتهم قصة آصف ودوره في كشــف القضــية، وأنه أبلغ إدارة البنك بأنني شــريكته في إنجاز هذه المهمة، وأن التقرير المالي الذي أعددته كان المدخل الرئيس في كشــف تورط الشركة.

أُدرك أن دوري كان هامشــياً جداً، إلا أنه صــنع منه شــيئاً مهماً لأحظى بالتكريم على حد المســاواة معه، وعد هذا التكريم فرصة مهمة تزيد رصــيدي الوظيفي، وتتيح لي الفرصــة للتقدم في مســاري العملي المستقبلي.

رأيت الفرحة في وجه والدي ووالدتي، حتى إننا أقبلنا على غدائنا ونحن في شغل عنه، لذة الفرحة فاقت كل تصور.

قال والدي: مع القلق الذي عِشــتِ به الأيام الماضــية، وعدم قدرتي على تفســير غياب آصــف، إلا أنني كنت أُحدث والدتك، أن آصــف لا يمكن أن تصدر منه زلة، أو أن يكون متورطاً في مثل هذه القضــية؛ لأنني منذ جالسته يوم عادني قبل شهر، لامست فيه روح الوفاء والأصالة، التي تميزه كبدوي يعد سمعته وسمعة أهله رأس ماله الذي لا يفرط به، ثم إني

شـعرت من حديثي معه باتزانه كرجل يقدر حدود مسـؤوليته، ويعامل الناس بالقدر الذي يكسبهم مودته واحترامه.

قالت أريام: ليت الناس كلهم كآصـف، لم يُؤثِر على نفسـه الفوز بالتكريم لكشـفه القضية، بل شـارك بها انتماء، لو كان شـخصاً غيره لم يأت على ذكر أحد في هذا الإنجاز.

أما والدتي فقالت الله يستر عليه ويوفقه.

بعد أن تناولنا غداءنا اتصل والدي بآصف، شكره على موقفه النبيل تجاه انتماء، وتمنى له حياة سـعيدة، وطلب اسـتضـافته قبل مغادرته إلى العقبة، ورفض الأعذار كلها التي التمسـها آصف، واستقر الأمر على أن يتناول معنا العشاء يوم غدٍ.

انتهت دعوة والدي لآصـف بابتسـامة عريضـة ارتسـمت على وجه أريام، التي ناظرتني نظرة صـبية تدرك ما يدور في فكر صـبية، انتهت سهرتنا مع والدينا، توجهنا إلى غرفتنا أريام وأنا، مدركة أن كل ما لم تقله أريام في سهرتنا ستقوله في عزلتنا، بدأت الحديث قائلة: والدي يستلطف آصف، ويعده مثال الرجل، ما رأيك أنت فيه؟

قلت لها من تعاملنا معه في العمل نعرف عنه أنه يتمتع بكل المعاني الفضـيلة، إضـافة إلى ذلك هو واضـح جداً، ويقدس علاقته الزوجية، ويكن احترام فوق ما تتصوري لزوجته، ويعدها توأم روحه، وأنه يتحدث عن انسجامهما معاً بطريقة يحسدان عليها.

رزقا قبل أيام بمولودة هي الثالثة في أسرتهم أسماها أُرْجُوان.

تعرفين بماذا يخاطبني عندما يكون الحديث بيننا حديثاً مباشراً؟

بماذا؟

يناديني أُرْجُوان.

لماذا يسميك أُرْجُوان؟

لأنني استخدم اسم أُرْجُوان اسماً رمزياً في صفحتي على موقع الفيس بوك.

هل يعني أنه معجب بهذا الاسم؟ أم معجب بك؟

أبداً لكنه يحب أن يخاطب الناس بأحب ما يتمنون أن يخاطبوا به، وأنه كلما كان يكن لشخص عاطفة يحدثه بذلك، ويبقى قريباً منه، ويتلاطف جداً في التواصل معه، ويحرص على دوام الاطلاع على أخباره، تجدينه مهتماً بدرجة كبيرة في سعادة من يحب، مع هذا لا تجدينه فضولي في معرفة كل ما يعتري أصدقاءه، يهتم بهم فيما يحبون أن يُظهروه فقط، وعندما يرى في وجه أحدهم حزناً أو يشعر بأن مزاجه متعكر، يهون عليه دون أن يعرف الأسباب، بل إن أراد أحداً أن يحدثه عن تفاصيل ما يعانيه من مشكلات، يتلاطف معه ويثنيه عن الحديث، ويطلب منه النظر إلى المشكلة من زاوية مختلفة، توصله إلى الحل، لا إلى تعقيدها.

قالت أريام: يبدو أنك درست شخصيته بشكل كامل!

نعم، نحن في القسم منذ أن تعرفنا عليه كلنا يعرف فيه هذه الصفات، وكلنا يتمنى أن يكون متصالحاً مع نفسه كآصف، وكلنا يتمنى أن يبقى مزاجه في أعلى حالات السكينة والروقان مثله، يأخذ الأمور بكل هدوء، ولا يكاد يستفزه موقف، ويتعامل بمرونة مع أي إشكال يعترضه، وهذا السلوك طاغ جداً في شخصيته.

قالت أريام: أسألك سؤالاً وتجيبي بصراحة؟

نعم

لو تقدم للزواج منك تقبلين به؟

أتمنى أن يتقدم لي زوج مثله، فهو عملة نادرة لا ينظر إلى الأمور من باب مصلحته فقط، بل ينظر لكل من حوله على أنهم شركاء في الفرح والسعادة، لكن من أين يأتي مثله!

أقول لك لو تقدم هو لك تقبلين الزواج؟

الحقيقة ما أقبل.

لماذا؟ وأنت تتمنين من هو مثله!

قلت لها: مثل آصف لا يمكن أن يكون في حياته غير امرأة واحدة، لأنه لا يرى في كل نساء الأرض من تعادل توأم روحه، وإن تعرف على

أي امرأة وأعجبته فإنه يحبها، لكن حباً لا يصل إلى مرحلة الزواج بها، أو استغلالها في غير طريق الزواج، وإنما يحبها حباً روحياً، بل أجزم أنه في صلاته يدعو الله أن يرزقها زوجاً صالحاً تسعد به ويسعد بها. وسيؤلمه أن تتعرض لأي سوء، أو حتى موقف يعكر مزاجها. فمثل آصف قليلاً ما يمكن أن نجد مثيلاً له.

قالت أريام: كيف تتوقعين أن تكون علاقتك به بعد أن يغادر إلى العقبة؟

قلت لها: سأقطع علاقتي به تدريجياً، مرة أتأخر في الرد على اتصالاته، ومرة لا أتابع حالات الواتساب وقصص الفيس بوك التي يحملها على التطبيق، إلى أن ينتهي أي نوع من أنواع التواصل بيننا.

لماذا؟

قلت لها: إن التعامل مع آصف يولد نوعاً من الإحباط، فمعرفة أشخاص مثله ستضيق أمام الشخص التعامل مع الأشخاص الآخرين، إذا أردت أن تجدي شخصاً بمثل مواصفاته لن تجدي، وستحاكمين باقي الناس بالمستوى الذي ترين فيه آصف، وهذه الحالة ستعقد معرفتك بالناس، ولن تستطيعي تخطي شخصيته بسهولة.

قالت أريام: لا أنكر أن كلامك منطقي، وأن وجود شخص كآصف في حياة أي فتاة سيكون حالة استثنائية، وأن البحث عن مثل مواصفاته لا يمكن وجودها بسهولة، نحن نبحث عن شخص يقدر إنسانيتنا ويتطلع

إلينا فتيات راغبات في السكينة والطمأنينة في ظل زوج يقدر مسؤوليات الأسرة، لا رجل يبحث عن شريكة حياة تساعده في نفقات الأسرة، وتكاليف المعيشة. رجل قبل أن يتعرف على الفتاة يستكشف عن وضعها المالي ومدى استقلالية راتبها عن الأقساط والقروض.

هل تعتقدين أننا في هذه العمر سنجد من يطرق باب بيتنا يطلبنا للزواج؟ اليوم نحن موظفات ونمتلك دخلاً جيداً، لكن سنين العمر تمضي سريعةً، ما اعتقد أن أهل أي شاب سيوافقون على زواج ابنهم من فتاة عمرها 36 سنة، والثانية على أبواب الرابعة والثلاثين، عزيزتي نحن في دائرة العوانس، وأكثر طموحات إحدانا الزواج برجل أرمل، أو متزوج وعنده أسرة.

سيلين
إرث الماضي

في تلك الجلســة العلاجية التي طلب مني أن احجزها لـه في غير جدول مواعيد الجلسات المنتظمة، أخبرني أن علاقته بوالده كانت علاقة أشــبه ما تكون رســمية، فهو لا يســتســيغ المزاح مع أحد، وكان يتجنب سماع أي حديث من والده عن طفولته.

عاش والده يتيمـاً بعد طلاق أمه ورفض جده أن يبقيه مع والدته، فعاش في رعاية زوجة أبيه، كانت قاسـية معه، كما هي قاسـية مع أبنائها، كـانـت امرأة سـيئة الإدارة في شــؤون منزلهـا، غير قـادرة على تحمـل مسؤولياتها الأسرية. زادت حدة مزاجها السيء بعد طلاق والدته وبقائه هو وشقيقه من أمه في رعايتها.

شقيقه الأصغر كان أوفر حظاً فقد أصرت جدته على أخذه للعيش عندها، أما هو فلاقى من الإهمال ما أجبره في سن السادسة على الهرب من بيت والده إلى بيت خاله، الذي ضـاق به خلال أيام قليلة، فأعاده إلى بيت أبيه، ليلتها جاءه الفرج! فقد قرر المعلم ضــمه للطلاب الذين يدرسهم، ففُرض على زوجة أبيه الاهتمام به.

لازمت والده عقدة النســاء طوال حياته، كُرهِه لســلوك زوجة أبيه جعله يكره النساء كلها، حتى تلك المرأة التي يقال لها أمه، عندما أصبح شاباً يستطيع أن يفعل ما يشاء، كان يتعمد هجرانها، لم يرغب في زيارتها،

كان يتعاظم في نفسه شعور تحميلها مسؤولية تركه بين يدي زوجة أبيه، لم يُقدّر لها أي سبب كان وراء طلاقها عن أبيه، فالنساء كبعضهن، والرجال كذلك، فلماذا يترك رجل امرأة، وتترك امرأة رجل، البديل واحد، والخسائر عظيمة.

قال لي أن والده لم يرأف لحال والدته إلا في السنة التي سبقت وفاته، كانت عجوزاً وكان هو على أبواب الموت، جاء بها من بيت شقيقه الذي كانت تعيش عنده بحجة حالتها الصحية المتردية وقدرته على رعايتها، وجعلها تقيم في منزله لتتمكن زوجته من خدمتها، ورعاية شؤونها، لم تمتزج العجوز العيش في بيته، رأت نفسها في مكان غريب عند شخص غريب، رغم ما قدمه هو وزوجته لها من خدمة ورعاية، ساعدها القدر بالخلاص منه، فقد سبقها للدار الآخرة، فعادت إلى أبنائها الذين قضت سنين عمرها عندهم. لم تدم حياتها طويلاً بعده، فقد لحقت به في أقل من عامين.

كان يرى آثار تربية والده وظروفها القاسية في تعامله مع والدته، قال لي: إن والدته كانت أكثر رقة من والده، كانت امرأة طيبة هادئة، تعرف شراسة طبع زوجها وكرهه للنساء، وسوء تعامله معهن، وعرفت لاحقاً أن كل أقاربه الذين طلب أن يتزوج ببناتهم لم يقبلوا تزويجه، لمعرفتهم بقساوته وشراسة سلوكه، فهم لا يتهمونه بأخلاقه، لكن لا يحب أحد أن يجعل ابنته تعيش حياة نكدة مع رجل صعب الطباع.

قال: أن زواج والده بأمه كان مسـألة حظ، فهي غريبة عن قبيلتهم، ووالدها لم يكن يعرفه، واكتفى حين السـؤال عن أصـله بمعرفة أنه من قبيلة محترمة، وأن جماعته من خيرة الناس، فعَلِقت أمه في هذا الشـرك، وكان ثمرتها هذا الابن الوحيد، الذي عاش حياته يرى أباً محباً له، لكنه قاسٍ في تعامله مع والدته لا يغفر لها زلة، ولا يؤجل لها ردة فعل، لم يرَ لأمه مكانة النسـاء عند أزواجهن، ولم يرَ أنها عاشـت يوماً سـعيداً في حياتها، فارقت الحياة بعد وفاة والده بأعوام قليلة، كان ابنها الوحيد لا يزال في أول مراحل الثانوية العامة، لم يجد بيتاً يحتضـنه غير بيت جدته من أمه، كانت له أماً حنونة، كانت عِوضاً له عن كل فقد وحرمان، عاش في كنفها ثلاث سنوات ثم لحقت بمن سبقها من أعزاء.

قال إنه لم يتزوج إلا في سـن متقدمة، كما هو حال والده الذي تزوج وهو على أبواب الأربعين من عمره، لكنه منذ أقدم على الزواج قرر أن لا يكون نسخة عن أبيه، قرر أن يكون زوجاً مثالياً، قرر أن يجاهد نفسه على ذلك ليتخطى عقدة والده، فكانت حياته الزوجية مسـتقرة، حظي بزوجة جميلة عاقلة متفهمة، زوجة تقدس حياتها الزوجية، اتفقا على التشـارك في تدبير شـؤون حياتهم، كان يترك لها مسـاحة من الحرية تفعل ما تراه مناسـباً، لم يكن يسـخط عندما تخطئ، كان يصـر على أن تتولى شؤون الأسرة حتى تشعر أنها جزء من شخصيته، تعبر عما يريد، فكانت العِلاقة بينهم تتوثق مع الأيام، وتزداد الروابط تماسـكاً حتى وصـلا لدرجة من التفاهم قل ما تكون بين الأزواج.

ومما يزيد حالته المرضية سوءاً خشيته من أن يصدمها بمشاعره التي بدأت تفور في رقة لامرأة أخرى، امرأة دخلت حياته فجأة في توقيت لا يتناسب مع كينونته وكيانه، لا يعرف ما يجرفه تجاهها، تسترقه كل ذكرى لها تجول في خاطره، يجد نفسه مأسوراً لها، لا يستطيع التحرر من ارتباط روحه بها، يفتقدها في كل لحظة من لحظات حياته، يراقبها من بعيد، يحصل على أخبارها ويطلع على كل ظروفها رغم قلة الاتصال، وتباعد المكان، رغم قلة اللقاء، يحدثها بصمت ويراها طيفاً، يختلق أي مناسبة أو ظرف عارض ليجعل منه سبباً للاتصال بها.

دفتر ملاحظاته مليء بالقصص التي ينقلها عن والده، وتلك التي يرويها عن والدته، لكن أكثرها حرارة وعاطفية تلك التي يتحدث فيها عن حبه لزوجته ومكانتها في قلبه، عن أسرته وحرصه على الحفاظ عليها، وأكثر ما يرعبه أن يتصور أحداثاً تدخل عليها فتقلب حالها، لا يريد أن يعيش أبنائه تلك الحالة التي كانها أبوه.

لم يكن مريضي بحاجة إلى اعتراف مباشر كي أفهم من أي جرح داخلي يتكلم، كل تفصيل في حياته، نبرة من صوته، قلقه المحسوب، طريقته المترددة في الكلام كان يشير إلى خلل أعمق بكثير من مجرد قصة حب طارئة أو توتر عاطفي طارئ، لقد تربّى على نموذج ذكوري صارم، كُوِّن في زمن لم يكن فيه للولد من وظيفة سوى أن يصبح رجلاً بسرعة... دون أن يُسمح له أن يكون طفلاً أولاً.

هذا النوع من التنشـئة التي تبدو ناجحة على السـطح، تترك وراءها هشاشة مقنّعة، تخلق رجالاً يتحركون بثقة في الخارج، لكنهم من الداخل مسكونين بعقدة الطفل الصغير، الذي لم يُسمح له بالبكاء، ولا باللعب، ولا حتى بالسـؤال. طفلٌ مؤجل، لا يزال ينتظر الحضـن الذي لم يجده عند أبيه، ولا أمه.

مريضي ليس وحده، كثير من الرجال الذين نشأوا في بيئات مشابهة، لا يدركون أن الرجولة ليسـت نقيض الطفولة، بل امتداد ناضـج لها، إن الطفل الذي حُرم من الحنان، لا يختفي مع الزمن، بل يختبئ، ينتظر فرصة يظهر فيها على شكل غضـب مفاجئ، أو انسـحاب غير مبرر، أو تعلق عاطفي بمن يمنحه لحظة صدق غير مشروطة.

كانت مهمة العلاج معه، في جوهرها، ليسـت في إصـلاح العِلاقة مع الآخر، بل في التصـالح مع هذا الطفل الغائب، الذي لم يُعترف به، ولم يُسأل قطّ: هل أنت بخير؟ كل جلسة، وكل ورقة كتبها، كانت خطوة نحو إجابة متأخرة على هذا السؤال.

هذه الجلسـة العلاجية الاسـتثنائية كانت الجلسـة الحاسـمة في تشخيص حالته المرضية. فحالة تنامي شعور الفقد التي يعيشها تعود في جذورها إلى تلك الخلفية السـلبية للعلاقة الزوجية التي عاشـها والداه، والتي حاول جاهداً تأسيس أسرته على نقيضها تماماً، حتى عرضت له تلك الفتاة في وقت لا تتوق نفسه إلى كسر حصـانة أسرته، فغدا معلقاً

بين شعور إنساني غريزي تتوق إليه نفسه يربطه بفتاة تتكامل فيها صفات فتاة الأحلام، لكنها ظهرت في حياته متأخرة، بعد أن سار شوطاً طويلاً في تكوين الأسرة المثالية، فأصبحت نفسه تتأرجح بين هذه وتلك، وغدا حائراً لا يريد لهذه جرحاً في مشاعرها ولا يريد لنفسه من تلك خلاص.

آصف

ذكراك معي

ما إن وصلت إلى سكني، حتى أوصلت هاتفي الذي فارقني أسبوعاً كاملاً بجهاز الشحن، وعند اكتمال تشغيله اتصلت بي كاساندرا، تسأل عني وأنها منذ أسبوع تحاول الاتصال بي لكن هاتفي مغلق، وراسلتني على الماسنجر لكن دون رد.

اتفقنا على الالتقاء الساعة الثامنة في كوفي شوب قريب، وقبل مغادرتي السكن لمقابلتها اتصل بي والد أُرْجُوان، شكرني على موقفي مع أُرْجُوان، وأصر على أن أتناول معهم العشاء يوم غد.

التقيت كساندرا

الحقيقة أنني اشتقت إلى لقائها، ويبدو أنها كذلك، أخبرتها بما جرى خلال المدة السابقة، ومضينا لتناول العشاء.

بعد العشاء أصرت على اصطحابي إلى شقتها.

قضينا ساعتين في لعب الشطرنج، وغادرتُ إلى سكني، واتفقنا على الالتقاء مساء الغد، بعد الساعة التاسعة مساءً، ليكون لقاؤنا الأخير قبل مغادرتي إلى العقبة يوم الخميس.

وصلتُ إلى سكني الساعة الواحدة صباحاً.

الجو بارد جداً، ورحت في سبات عميق، حتى أيقظني منبه الهاتف استعداداً لتجهيز نفسي للالتحاق بالعمل.

كان ذلك اليوم يوماً جميلاً من أيام الشتاء، خيم الضباب على أجواء عمان، الرياح في حالة سكون تام، ودرجات حرارة لا تزيد في أعلى معدلاتها عن 8 درجات.

انقضت ثلاثة أشهر من تاريخ مباشرتي العمل في عمان، وغداً سيكون آخر يوم، لهذا قررت أن أنجز كل ما هو محول لي من أعمال، وأجدول المهام التي تحتاج إلى وقت أطول وأسندها لموظفي القسم، حتى يتمكن مروان من متابعة أعمال القسم خلال الشهر القادم.

انتهى وقت العمل ذلك اليوم سريعاً

وعند خروجنا من مبنى البنك قررت أن أواصل مسيري باتجاه مكتبة العاصمة؛ لأني كنت قد جهزت قائمة من كتب التاريخ والروايات التي أرغب الحصول عليها قبل عودتي إلى العقبة، وحتى لا أنشغل بها يوم غد.

الساعة السادسة والنصف انطلقت بسيارتي لألبي دعوة والد أُرْجُوان.

كانت سهرة جميلة امتدت ساعتان، زادت من معرفتي بهذه الأسرة، شعرت خلالها بهموم والد أُرْجُوان، وإن لم يتحدث معلناً ما يدور بخاطره.

لكن مثلاً سمعته سابقاً، استحضره الموقف، فسر ملامح والدي أُرْجُوان "هم البنات للممات".

كم يتحمل الآباء من معاناة لسعادة أبنائهم، وتبقى البنات في أعلى مراتب الاهتمام.

إن كانت إحداهن طفلة صغيرة مدللة

أو فتاة شابة مصدر الاعتزاز

أو في سن الزواج يرجون لها خير من يُقدرها ويحترمها ويُحسن عشرتها، وإن كانت متزوجة وربة أسرة يشاركونها همومها ومعاناتها في تربية أبنائها ورعايتهم

لا يُقدّر الأبناء مكانة الآباء حتى يخوضوا ما خاضوا من تجارب.

بعد تلك السهرة الجميلة، التقيت كساندرا في ذلك المقهى الذي اعتدنا الالتقاء به، وما إن شربنا قهوتنا حتى قالت: سنغادر إلى شقتي، أعددت لك مفاجأة بمناسبة رحيلك غداً.

وصلنا شقتها الساعة العاشرة والربع، كانت الشقة دافئة بفعل التدفئة المركزية، خلعت معطفي وجلست أنتظر حضور كساندرا التي دخلت إحدى الغرف، عادت بعد لحظات تحمل بيدها دفتراً قديماً.

قالت: هذا المخطوط يتضمن مذكرات جد والدتي، هاينريش أوغست مايسنر، عمل في تركيا والمشرق العربي مهندساً ورئيساً لشركة تنفيذ سكة حديد الحجاز.

كانت هذه المذكرات موجودة في صندوق متعلقات والدتي، حَصَلت عليها من والدتها التي كانت أصغر بناته، أُقدمها لك لأني أعلم شغفك بقراءة الروايات، راجية أن تترجمها من الألمانية، وتكتبها على شكل رواية، تحيي فيها ذكر جد والدتي، وتخلد عمله التاريخي، وتكون تجربتك الأولى في كتابة الرواية.

سعدت بهذه الهدية، قلت لها: سأبحث عن شخص يمكنه ترجمتها إلى اللغة العربية، وبعدها أشرع في تحويلها إلى رواية، هذا وعد.

تسامرنا ساعة، عدت بعدها إلى سكني، احمل كنزاً لم تصل له يد عربي قبلي.

صباح اليوم التالي، نقلتُ كافة أمتعتي الشخصية إلى سيارتي، وسلمت مشرف البناية مفتاح السكن، وتوجهت إلى عملي في البنك، كان يوم ختام الانتداب، ويوم وداع الأصدقاء في العمل.

جلسنا أول ساعة من ساعات العمل نتحدث في شؤون عامة، وأخبرتهم أنني حصلت ليلة أمس على مذكرات المهندس الألماني الذي كلفه السلطان عبدالحميد الثاني في مد خط سكة الحديد بين مدينة دمشق والمدينة المنورة، مطلع القرن الماضي.

رمقتني عيونهم وبدت الدهشة على وجوههم، وبين سؤال من أين حصلت عليها؟ وسؤال هل أنت جاد؟ وسؤال كيف؟

قلت لهم: المشكلة أنها مكتوبة باللغة الألمانية وبخط اليد، وأتمنى العثور على مكتب ترجمة، أو شخص متخصص لترجمتها إلى اللغة العربية.

لم يذكر أي من الزملاء معرفته بشخص يمكنه القيام بهذه المهمة، وغاية ما وصل مسمعي منهم أن هذا الأمر سيحتاج مبلغاً مالياً كبيراً، بعدها توجه كل واحد منهم إلى عمله، ودخلت مكتبي.

دخلت أُرْجُوان إلى مكتبي بعد ربع ساعة وقالت: اتصل بوالدي يريدك في أمر هام!

اتصلت به، وبعد الترحيب والسلام قال: أخبرتني انتماء أنك حصلت على مذكرات المهندس مايسنر باشا مكتوبة باللغة الألمانية.

قلت: نعم.

قال: بإمكاني أن أترجمها لك إلى اللغة العربية.

قلت: يسعدني ذلك، لكن لا أريد أن أشق عليك.

قال: أبداً بكل سرور.

انتهى اتصالنا. نظرتُ إلى أُرْجُوان مستغرباً.

قالت: درس أبي الهندســة المدنية في ألمانيا ببعثة ممولة من القوات المسلحة. وعمل في سلاح الهندسة حتى تقاعده. وبذلك ستكون ترجمة المذكرات أمراً ميســوراً له، وفرصــة يخرج فيها من عزلته وحالة الفراغ التي أثرت في صحته.

شكرتها على مبادرتها، وسلمتها المذكرات، وكلي شوقاً لاستعادتها بعد ترجمتها.

أنهيت عملي ذلك اليوم، ودّعتُ الزملاء في القســم، ورأيتُ في عيون أُرْجُوان الحزن الذي أشعر به في قلبي لفراقها.

أحببتها منذ أول يوم التَحقت به للعمل في القســم، منذ دخلت باب مكتبي برفقة مروان، وتذكرتُ يوم التقيتها أول مرة في مكتبة العاصمة.

انتماء

ذاكرة سنين

أول سؤال طرحه والدي عند دخولي المنزل هل أحضرتِ المذكرات؟

نعم، هذه هي.

سلمتها له وكأنه استعاد عافيته، وانتعشت ذاكرته، لتحيا في نفسه ذكرى سنواته التي قضاها في ألمانيا، طالباً في جامعة إرلنغن نورنبيرغ.

قال: مذكرات المهندس العظيم! ما أجملها من صدفة.

بعد خمسة وأربعين عاماً من مغادرتي ألمانيا تقع في يدي.

ما أروعك يا آصف!

كم تمنيت الحصول على هذه المذكرات، كانت سيرة هذا المهندس العظيم مثالاً لنا في كليات الهندسة في كل أنحاء ألمانيا، نعرفها بكل تفاصيلها.

وُلِد في مدينة لايبزيغ الألمانية في عام 1862، درس وتخرج في مدرسة (أنين- ريالجيمنزيوم). وبعد تخرجه بدأ رحلته في المعهد التقني في مدينة دريسدن في عام 1881، كان مايسنر يمتلك شغفاً كبيراً بكل ما يتعلق بالسكك الحديدية.

ولأنه كان يعلم أن العالم أكبر من حدود ألمانيا، وأن هناك فرصاً كثيرة تنتظره في الخارج، تعلم اللغة التركية، وكان يرى في تعلمها وسيلة للتواصل مع ثقافات أخرى وتوسيع آفاقه.

عكف والدي على المذكرات قرأها مرة وثانية وثالثة، وكأنه في كل مرة يقرأها يستزيد منها معرفة.

لم يمض شهر شباط حتى فرغ والدي من ترجمتها، وخاطب آصف في مكالمة هاتفية، يبلغه رغبته في إرسالها له مع مخطوط المذكرات الأصلية.

استأذنه آصف بأن لا يرسلها مع أحد خشية أن تفقد، ثم إنه سيحضر إلى الزرقاء يوم السبت لاستلامها، واتفقا على أن تكون زيارته إلى منزلنا الساعة العاشرة والنصف صباحاً.

كان لقاء آصف بوالدي في منزلنا ذلك الصباح من أكثر أيام سعادة والدي، حتى نحن أهل بيته ما عهدناه على هذا الحال.

وخلال الحديث الذي دار بينهما عن مضمون المذكرات تحمس آصف لمشروع كتابة الرواية، ووعد والدي بأن يرسل له مسودة كتابة فصولها أولاً بأول، حتى يستفيد مما يكنه والدي من عاطفة لصاحب المذكرات، ويوظف روح هذه العاطفة في سردية الرواية.

غادر آصف منزلنا مع حلول ظهيرة اليوم، بالمصادفة التقى عند باب بيتنا بعمتي أم عبد الحميد وابنها خالد، حضـرا لزيارتنا من غير موعد، تبادلوا السـلام، ورحبتُ بعمتي وابنها ودعوتهما للدخول، وناديت على والدتي أخبرها بوصول الضيوف.

سُـر والدي بزيارة عمتي وابنها، وبعد السـلام والترحيب وشُـرب القهوة، قمت وأريام لنحضر الغداء لضيفينا.

في المطبخ بدأت أريام باختلاق الفرضيات التي جاءت بعمتي وابنها، وعادت تؤكد أن هناك رابطاً مهماً بين زيارتهم الأولى وقت خروج والدي من المستشفى وهذه الزيارة.

وبين حين وآخر كانت تذهب تتسـمع ما يدور من حديث بينهم في غرفة الضيوف، لم يعيها الأمر كثيراً، استطاعت أن تكتشف سر هذه الزيارة.

فقد جاءت عمتي وابنها خاطبين لأريام، وأن والدي طلب منهما إمهاله حتى مساء يوم الخميس القادم ليشاور أريام وأبناءه.

كانت أريام محط أنظار عمتي طيلة وقت تناول الغداء، وكانت متلبكة من الموقف.

هذه أول مرة أرى فيها أريام بهذه الحالة التي لم تنفك عنها حتى غادرتنا عمتي وابنها إلى القرية.

حدثت والدتي أريام عن رغبة عمتي في خطبتها لابنها خالد، وأن خالداً أرمل وابنه الوحيد في عمر الســنتين يعيش في كنف عمتي، لم تزد أمي عن هذا الكلام شيئاً، لكن معرفتنا بها جعلتنا نستشعر أن هذا الطلب خارج حساباتها وأنه ليس أكثر من كلام لا وزن له.

عند عودتي من عملي مســاء يوم الأربعاء علمت من أريام أن والدي اتصــل بعمتي أم عبدالحميد وأبلغها أن أريام لم تقبل الخطوبة لأنها لا تستطيع الاستقرار في القرية بعد أن قضت كل حياتها في مدينة الزرقاء.

سألتها هل تحدث معك أبي في هذا الأمر؟

أجابت بالنفي!

لكن لم يظهر عليها أي اســتغراب من ردة فعل والدي وعدم تدخل والدتي في إثناء والدي عن رأيه، فتقبلنا أريام وأنا الخبر بنوع من التعجب، دون مناقشة.

بعد انتقال آصف إلى عمله في العقبة بدأت أشعر بحالة غريبة أكثر ما توصف بأنها حالة من الفقد.

نعم افتقدته كثيراً، مع أن مدة تعاملي معه كانت قصــيرة، لم تزد عن شهرين، إلا أنها أثرت في شخصيتي كثيراً.

أصــبحت أحب مطالعة الروايات على الرغم أن علاقتي بها كانت إشــغال وقت وتســلية، ثم تأثرت بســلوكياته فغدت نفســيتي تميل كثيراً

للهدوء والتأني في ردات الفعل، ولم أجد ملاذاً آمناً يعزز في نفسي هذه المشاعر إلا متابعة ما ينشره على صفحات التواصل الاجتماعي، أو ما يضعه من حالات على الواتساب، مع حرصي الشديد على عدم التعليق أو وضع شارات الإعجاب على منشوراته، بل إنني أتابعها متخفية.

كانت مكتبة العاصمة المكان الأكثر قرباً إلى نفسي، عندما تستثقل عليّ مشاعر الحنين، فأصبحتُ أكثر التردد عليها حتى لم يكن يمض أسبوعاً إلا زرتها، خلال شهرين أصبحت زبونة المكتبة، تعرفت على مديرها وموظفيها، كنت في كل مرة أشتري رواية أو مجموعة قصصية، أقرأها لأجد مبرراً للعودة وشراء كتاب جديد.

في إحدى زياراتي للمكتبة أصر مديرها السيد فريد على أن أشرب بمعيته فنجال قهوة، وبدأ الحديث بيننا حتى عرف أنني موظفة في البنك المركزي، حينها سألني تعرفين السيد آصف؟ قلت له نعم. هو من موظفي البنك، لكنه انتقل للعمل في فرع العقبة.

قال: اعرف. فهو من زبائن المكتبة، وله ذكريات جميلة فيها.

بدأ يسترسل بالحديث حتى ذكر لي أن آصف كان على علاقة ود جمعته بفتاة كانت تعمل في دائرة حكومية قريبة، وكانت المكتبة هي مكان لقائهما. وأن علاقتهما انتهت بوفاتها بمرض التلاسيميا.

قال: كانت سلافة تستمد طاقتها وتحمل معاناتها مع المرض من مواساة آصف الدائمة لها. ولم أرَ آصف في حالة من الحزن كتلك

اللحظة التي دخل بها عليّ في المكتبة ذات مساء يخبرني أن سلافة وافتها المنية وأنه شهد تشييع جثمانها ودفنها.

تركت كلمات السيد فريد أثراً في نفسي دون أن يشعر، بدأت أتساءل ما نوع هذه العِلاقة التي جمعت آصف بسلافة، وإن كانت لقاءاتهما في المكتبة فهذا يعني أنه لا يقابلها في أي مكان آخر، جو المكتبة ليس بالمكان المناسب لتبادل الحديث بالحرية التي يمكن أن تكون بين شخصين يرغبان الالتقاء للحديث معاً. شكرت السيد فريد على ضيافته واستأذنت مغادرة إلى البنك.

آصف

فلسفة العِلاقة

عودتي إلى مركز عملي بفرع البنك في العقبة أشـغلتني كثيراً ولم اعد أشعر بوقت الفراغ الذي كنت أعانيه خلال إقامتي في عمان.

أصبح وقتي يمضي بين العمل والانشغال في المناسبات الاجتماعية، والانشـغال بشـؤون أسـرتي، وعدت إلى عادتي القديمة في اصـطحاب زوجتي في عطلة نهاية الأسـبوع من آخر كل شـهر نزور أحد المواقع السـياحية أو الأثرية، كنا نسـتمتع بهذه الجولات التي غالباً ما نقوم بها وحدنا، نترك أطفالنا في رعاية جدتهم ونخرج، وفي بعض المرات كنا نخرج برفقة مجموعات سياحية تنظمها بعض الشركات المحلية.

بعد شـهر من عودتي إلى العقبة اتصـل بي والد أُرْجُوان يخبرني بأنه أنهى ترجمة مذكرات مايسـنر باشـا، فأخبرته أنني سـأحضـر بنفسـي لاستلامها.

اتفقنا على أن يكون لقاؤنا في بيته، كان يوماً مشـمسـاً من أوائل أيام شـهر آذار، كنت مسـروراً وأنا أستلم المخطوطة الأصلية، والمخطوطة المترجمة لمذكرات المهندس الألماني الذي أشرف على مد أشهر خط سكة حديدية في تاريخ الدولة العثمانية.

خلال مجالستي لوالد أُرْجُوان شعرت بحالة التعافي التي وصل إليها، يبدو أن اطلاعه على مذكرات مايسنر باشا، أوقد في نفسه شعلة العزيمة، والإرادة.

أمضينا الجلسة وهو يتحدث عن أحداث حياة مايسنر باشا كما قرأها في مذكراته، الأمر الذي زاد حماستي في كتابة الرواية، وأخبرته أنني وضعت تصوراً أولياً لكتابة الرواية وأنني سأرسل له أولاً بأول فصول الرواية، كي يطلع عليها، وأرحب بأي نقد أو رأي يمكنه توجيهه حتى أخرج بعمل روائي يليق بمكانة مايسنر باشا.

رحب بالفكرة، وطلب مني التأني في الكتابة وأن أقرأ المذكرات أكثر من مرة حتى يمكنني أن أخلق حالة من التآلف مع شخصية كاتبها قبل أن أتحدث بلسانه، أو أُعبّر عن شخصيته.

قدمت لنا أريام خلال جلستنا الشاي وكيكة الحليب، يبدو أن ذاكرة أُرْجُوان قوية، حتى تمكنت من حفظ طريقة إعدادها، ففي حديث سابق بيننا عم يفضل كل منا من الحلوى، أخبرتها أنني أحب كيكة الحليب المجفف، ولا أعرف إن كان لها اسم آخر معروفة به غير هذا الاسم، سألتني عن طريقة تحضيرها.

وأخبرتها أن تحضير طبق منها يبدأ بتحميص 250 غراماً من الحليب المجفف على نار هادئة حتى يتحول لونه إلى اللون الذهبي، ثم يترك ليبرد. في وعاء آخر تخفق (7) بيضات مع كمية من السكر حسب

الرغبة، وكأس من جوز الهند وثلاث ملاعق من الفانيلا، وثلاث ملاعق من البيكنج باودر، وكأس صغير من الزيت النباتي، تخلط المواد مع بعضها حتى تتجانس، ثم يضاف إليها الحليب المحمص بالتدريج حتى تصل إلى قوام بين المتماسك وشبه السائل، بعدها يوضع الخليط في صينية مدهونة بقليل من الزيت وتدخل إلى الفرن مدة نصف ساعة، تعتمد سماكة الكيكة على سعة الصينية وكمية الخليط، لأن هذه الكيكة عند نضجها لا تنتفخ بل تبقى على السماكة نفسها التي وضعت بها، بعد التأكد من نضجها في الفرن، يحمر الوجه قليلاً، ثم تترك لتبرد، وبعد ذلك يمكن تناولها على هذا الحال، أو إضافة القشطة على وجهها. مذ كنت طالباً في الجامعة تعلمت تحضيرها، وحتى الآن استمتع في تحضيرها مع زوجتي.

لم يدر بيني وبين أُرْجُوان حديث سوى السلام، والسؤال عن الزملاء في القسم، وحمّلتها السلام لهم، لكن هذه الزيارة كان لها وقع مختلف.

صحيح أنها ثالث زياراتي لمنزلهم، لكن في هذه الزيارة رأيتني مشتاقاً لهذه الأسرة التي أدخلني إليها القدر، وغدت أُرْجُوان أكثر قرباً مني، ولم أغادر مع ساعات الظهيرة إلا صورة أُرْجُوان مطبوعة في أعماق نفسي.

كنت متفقاً مع كاساندرا أن نلتقي ذلك اليوم في ذات الكوفي شوب الذي اعتدنا الالتقاء به، وحين اتصلت بها أخبرها أنني في طريقي للقائها، أكدت أنها بانتظاري.

لا أعرف ماذا دار في خلدها حين التقينا أن تعانقني، عاجلتني بهذا الموقف ولم أدر ما أفعل، لكن سرعان ما انهمرت دموعها، فدعوتها إلى الجلوس حتى أتبين ما بها، أسألها ولا تستطيع أن تتكلم، طلبتُ فنجانين من القهوة، وتركتها حتى استعادت استقرارها، فاعتذرت مني على عناقها لي.

قالت: في فترة غيابك كثيراً ما شعرت بخطأي في عدم الزواج وتكوين أسرة، فقد ضيعت سنوات عمري أفكر في النجاح الوظيفي والاستقلال المالي، والترفيه عن نفسي بحثاً عن المتعة، حتى أصبحت في الأربعين فوجدت نفسي وحيدة في هذا العالم ينقصني السكون الأسري، وأضعت على نفسي فرصة أن أكون أماً.

أخبرتني أنها قررت إنهاء عملها في الأردن والعودة إلى أمريكا، ترغب في إعادة بناء حياتها.

فاجأتني كساندرا الفتاة الأمريكية المتحررة من هذا الانقلاب في تفكيرها، فتاة انفتحت لها الدنيا أن تفعل ما تشاء

وتعيش كيف تشاء

تخلق من الضوابط ما يناسبها وترفض ما لا يناسبها

معيارها في ذلك خصوصيتها ومزاجها

لا ضوابط ولا قيود ولا شريعة تحتكم لها

لكنها الفطرة الصحيحة جاءت تؤكد حاجة الإنسان لسلوك قويم يصحح مساره في الحياة، لم أمتلك القدرة على توجيه أي نصيحة أو التعليق على شيء مما قالت.

كان ملاذي الصمت، وما زدت عن قولي لها أنها على حق.

عادت تؤكد أنها ستغادر آخر شهر حزيران، وأنها قبل رحيلها قررت أن تتوجه إلى المملكة العربية السعودية لزيارة موقع مدائن صالح الأثرية في منطقة العُلا، وفي طريق العودة ستعود جواً عن طريق مطار الملك حسين الدولي، لتتمكن من زيارة مدينة البتراء الأثرية.

اتفقنا على الالتقاء في مدينة العقبة عند عودتها من رحلتها إلى السعودية، وأن اصحبها في زيارتها لمدينة البتراء، واتفقنا أن أسلمها دفتر مذكرات مايسنر باشا، ونسخة مطبوعة من الترجمة العربية للمذكرات.

كانت الانقلابة في تفكير كاساندرا، تشغل تفكيري وأنا عائد من عمان إلى العقبة.

كنت أقارن حالها بحال أرْجُوان وشقيقتها أريام.

فتيات تجاوزن سن الثلاثين ولم يتزوجن، فأعود استذكر أنني أنا لم أقدم على الزواج إلا في سن متأخرة.

فأعود معزياً نفسي على ذلك بأن تكاليف تكوين بيت الزوجية كبيرة، نفقات يذهب كثير منها رياءً وسمعة ووجاهة، تقيد الرجل وتثقل كاهله، ما حاجة الزوجين بإقامة عرسهما في قاعة أفراح بمِئات الدنانير؟

ما حاجة العروس لصالون تجميل بمِئات الدنانير؟

ما الحاجة لحفلة زواج يدعى لها مِئات الأشخاص؟

ما الحاجة إلى تقديم آلاف الدنانير مصاغاً ذهبياً للعروس؟

ما الحاجة إلى وليمة طعام تكلف آلاف الدنانير؟

وأتساءل هل تكاليف الزواج هي العائق؟ أم أن شخصيات الشباب والفتيات مضطربة لا تكاد تستقر لها قريرة، أحلام كبيرة وطموحات لا حدود لها في واقع بائس مرير مشوه.

بعد ساعة من السفر وما إن وصلت منطقة القطرانة حتى قررت أن أنزع عن نفسي هذا التفكير السلبي، وأن أخرج من هذه الأسئلة والدوامات التي لن تنتهي ولن تقدم حلاً لمشكلة اجتماعية تكاد في عموميتها أن تدخل كل بيت، إن لم تكن دخلت فعلاً، قررتُ أن استمتع بسماع الأغاني لتخفف عني وحدة السفر في هذا الطريق الطويل إلى العقبة، كتبتُ في محرك البحث "شوق" وبدأت الألحان وعذوبة

الكلمات تتراقص متسلسلة أغنية بعد أُخرى، حتى وصلت مع ساعة الغروب إلى منزلي.

استقبلتني زوجتي وكأنني غبت أياماً عنها، إن تعلقي بها وتعلقها بي إحدى أكبر النعم، لن يدركها إلا من كانت روحه مندمجة في روح زوجته، كنتُ دائماً استغرب من بعض الأزواج كثرة تذمر أحدهم من الآخر، وكثرة المشاكل الزوجية بينهم، حتى إنني أستهجن أن يُقْدم أحدهما على قرار الطلاق، الذي تنفر نفسي من الحديث عنه، أي إنسانية هذه التي لا توحد روحي زوجين، أي أمر معضل هذا الذي قد يقودهما إلى الطلاق.

لا تخلو حياتي مع زوجتي من بعض المشاكل، واختلاف الآراء، واختلاف في بعض التفضيلات، لكن ما أرى شيئاً منها يستحق أن أصر على رأيي، أو أن تُعاند هي في أمر يمكن لكل منا أن ينزل عن شيء منه حتى نصل لحل، إن لم يكن مرضياً يكن مقبولاً بحده الأدنى، وكذا تسير الأمور.

لا يفهم الرجل أن المرأة كائن بشري قادرة على مواجهة صعوبات الحياة وتحملها إن كانت مع شريك يقدرها وينزلها منزلة كريمة، المرأة بحاجة إلى الشعور بأمان مع زوجها، متى فقدت هذا الشعور ما حاجتها به، سوى ذلك بإمكانهما أن يصلا إلى تسوية أي خلاف بينهما، مع تحقق

الأمان أنت أيها الرجل تكسب سكناً في هذه الحياة، تكسب معيناً، تكسب روحاً تشعر بك وتساندك.

أنت أيها الرجل ملزم بكسر الحواجز كلها التي تشوش شعور الأمان عند زوجتك، أنت المسؤول عن قيادة سفينة الأسرة مهما تلاطمت بها الأمواج، قرار الطلاق معناهُ الاعتراف بالفشل.

الزوجة خياراتها محدودة مع خيارات الزوج، صانت نفسها، صانت بيتها، هذا كل ما عليها، غير ذلك فالمسؤولية حملها ظهر الزوج.

إن تزوجتَ من أسرة فأنت ابن لهم، فلا تكن عاقاً، ولا يكن خاطرهم أقل الأمور شأناً عندك.

انتماء

فارق فكر

اتصـــل عمي أبو أنس يدعو والدي لحضـــور حفل زواج ابنه راغب الذي سـيقيمه ثاني أيام عيد الفطر في منزله بالقرية، رحب والدي بالدعوة وأكد حضوره والعائلة كلها، ما إن وضع الهاتف عن أذنه حتى نادى على أريام، وقال لها: بُنيتي خطبتك عمتك أم عبدالحميد لابنها خالد، ولم أقبل، أعرف أن العمر يمر بك، لكن لا أرى في خالد الزوج المناســب لك.

كان الأهل سـابقـًا يجعلون تربية الابن من مسـؤوليات الأب، وتربية البنات من مســؤوليات الأم، فكانت تربية الأبناء تؤســس على تحمل الصعاب، ويشـقون عليهم كثيراً، حتى يُخرجوا منهم رجالاً قادرين على مواجهة صعاب الحياة.

ولما تغيرت طرق المعيشــة في جيلنا وذهبنا نلتمس الرزق بالوظيفة انشـغلنا عن أسـرنا وتركنا تربية الأبناء والبنات للأمهات، فانحرفت تربية الأبناء، لأن الأمهات تعاملن مع أبنائهن بالعاطفة، ولم يســتطعن مجاراة تجارب الآباء في التربية، فغدت تربية الابن والبنت على نسق واحد، وفي ظروف واحدة، ولم يعد جيل الشــباب مدركـًا لهذه الكارثة التربوية التي انساق في مجراها.

فأصبح معظم شبابنا مائعاً لا يصلح لقيادة أسرة، ولا يستطيع أن يقاوم رغبات والدته وتطلعاتها، فغدت كثير من الأمهات تسيطر على كل شؤون ابنها وتتحكم في رأيه وقراره ومسيرة حياته، تتدخل في شؤونه وكأنه طفلاً بحاجة إلى رعايتها وتوجيهها.

أقول لك هذا الكلام بُنيتي لأنني أعرف عمتك أم عبدالحميد جيداً، وأعرف كيف ربت أبنائها، وأعرف المشاكل التي واجهها ابنها خالد مع زوجته رحمها الله بسببها، حتى بعد وفاة زوجته لم تقبل عمتك أن يذهب ولدها اليتيم إلى حضانة جدته من أمه، وأصرت على بقائه في حضانتها ولم تدخر أي وسيلة في سبيل ذلك، وزوجها للأسف لا يقول من قولها شيئاً. حتى أوقعت أعمامك في مشكلات مع أبناء عمومتهم بسبب ذلك.

أخبرنا والدي بنيته حضور حفل زواج راغب، وطلب منا تحضير أنفسنا إن رغبنا الذهاب معه ومع والدتي، واشترط علينا إن قررنا الذهاب معه أريام وأنا عدم التعرض لعمتي أم عبد الحميد إن بدر منها أي موقف تجاهنا خلال حضورنا حفل الزواج، وطلب منا تحميله تبعات الأمر أن أبدت مضايقتها لنا، لأنه يعتقد أنها لن تفوت هذه المناسبة دون أن تخلق مشكلة بسبب رفضه تزويج ابنها من أريام.

غادرنا منزلنا الساعة الواحدة بعد الظهر متوجهين إلى القرية، أصر عمي أبو صالح على أن نكون في ضيافته، ونقيم في منزله، وصلنا منزله مع ساعات العصر، وقبل غروب الشمس ذهب والدي بصحبته إلى بيت

العرس حيث اجتماع الرجال، وخرجنا نحن برفقة زوجته وبناته لبيت أهل العروس، لحضـور حفلة الحناء، أمضـينا سـهرتنا تلك الليلة، على خير حال.

إقامة حفلات الأفراح في القرية تختلف كثيراً عن واقع الاحتفالات في المدينة، اكتفوا بالقرية بإحضــار خيمة أفراح وكراســي للضــيوف، ووزعوا قطع الحلوى على الضـيوف، في حين أن إقامة مثل هذا الفرح في مدينة الزرقاء يتطلب حجزاً مسـبقـاً لقاعة الأفراح، والالتزام بوقت محدد، تختلف القاعات في تصـميمها وسـعتها وخدماتها، ويترتب على هذا الاختلاف فرق كبير في قيمة الحجز وتكاليف إقامة الاحتفال.

في اليوم التالي قُدم طعام الغداء للمدعوين بعد صـلاة الظهر، وبعد صـلاة العصـر تحركت فاردة العروس، ونقلت العروس من بيت والدها إلى منزل والد العريس الذي جُهز في ساحته خيمة كبيرة، حيث أقيم حفل الزواج.

لـم تزد عمتي أم عبدالحميـد عن النظر إلينـا نظر التعجب والاستغراب، ولسـان حالها يقول: لا يستطعن العيش بعيداً عن الزرقاء، وما بها العيشة في القرية؟ خليكن عوانس أحسن!

شـعرتُ وأريام حالة من عدم الارتياح أو الانسـجام مع الواقع المعاش لبنات العمومة في القرية، واقع الحياة في المدينة يختلف كثيراً، تعقد العلاقات وتشـعبها في المدينة لا يُثقل كاهل الشـخص في أي

التزامات شخصية، خلاف ما يكون في القرية، فالمعرفة فيها ناتجة عن علاقات شخصية تفرضها صلة القرابة وطبيعة العلاقات الأسرية، وكل تصرف أو ردة فعل تُحسب على الشخص، فتتولد حالة من الحساسية والحذر في التعامل.

في القرية يريد كل شخص تقديم نفسه بأنه هو الشخص الكامل السوي، وأنه القدوة وأن الطريق يطول على غيره للحاق بمستواه الاجتماعي، وحين ننظر في الواقع نجد أنهم على خط المساواة فثقافتهم واحدة، ولهجتهم تحافظ على صبغتها، ومتغيرات حياتهم وتشعباتها تكاد تكون واحدة، وأن مكتسباتهم الثقافية متوارثة وتتطور ببطء شديد نتيجة ما يدخل على حياتهم الرتيبة من عناصر خارجية تغير في وعيهم وتطلعاتهم.

هذا الذي نراه نقصاً يعدونه إرثاً يحافظون عليه بمحض إرادتهم منكرين أنه حالة من الانغلاق الاجتماعي في عصر ثارت فيه ثائرة التكنولوجيا، حتى غدت وسائل التواصل الاجتماعي ماعون التشكل الثقافي في كل مجالات الحياة.

تعلمنا من ثقافتنا العربية أن أهل الحواضر كانوا يُرسلون أبناءهم إلى البوادي حتى يربوهم تربية تكسبهم القيم والشجاعة ولساناً قويماً فصيحاً، لكن طبيعة الحياة اليوم تتطلب أن يختلط أهل القرى والبوادي بأهل المدن، ليطوروا سلوكياتهم وينموا مهاراتهم ويوسعوا مداركهم

الفكرية في عصر يعتمد على مهارات معيشية متجددة تختلف في متطلباتها عن تلك المتطلبات التقليدية التي اعتادوا ممارستها وتأقلموا معها في القرية حتى غدت جزءاً من هويتهم الحضارية.

صباح يوم السبت غادرنا القرية عائدين إلى منزلنا، ما إن وصلنا حتى أخبرنا أبي أنه على موعد مع صديق له مساء اليوم في منزلنا، وأن هذا الصديق يرغب في خطبة أريام، وأنه على معرفة به، فقد كان يعمل معه في المؤسسة التي عمل بها بعد تقاعده من الجيش، وقال لها أن "جهاد" طلق زوجته منذ سنتين، وأبناءه يعيشون مع والدتهم في مدينة إربد، ويسكن في مدينة الزرقاء، مؤكداً أنه يترك لها الخيار بعد أن تلتقيه وأن عليها أن تجلس معه وتتعرف على ما تريد منه قبل أن تقرر موافقتها على الارتباط به أو رفضها.

أريام ليست الفتاة الساذجة التي تتخذ قراراتها بالعاطفة أو دون أن تقلبها وتشبعها تدقيقاً، وتمتلك من الجسارة والشجاعة على المواجهة والتحقيق في جزئيات الأمور ما لا نستطيع كلنا عمله، لهذا كان والدي مرتاحاً من جهتها، ويقدر كثيراً أنها تستطيع أن تقرر ما يناسبها ويشجعها على أن تفعل ما تريد، مدركاً أننا في زمن لا بد فيه لكل شخص أن يقرر بنفسه ما يريد.

قال لها: اليوم في زمن توافرت فيه فرص الاتصال وإمكانية التنقل والالتقاء بين الأشخاص لم يعد من الممكن فرض رأي أحد على أحد،

وبدل أن تكون لقاءات الأبناء في الخفاء عن الأهل، أو من وراء ظهورهم، لا بد أن تكون مكشوفة وعلى مرآهم ومسمعهم، لضمان حسن النوايا، لهذا طلبتُ من جهاد الحضور وحدة، لتجلسا سوياً وتتعرفا على بعضكما في بيتنا، وتناقشا ما بدا لكما من شؤون الحياة، لتقررا الارتباط أو أن يذهب كل منكما في شأنه.

حضر جهاد في الوقت المتفق عليه مع والدي، وبعد تقديم الضيافة له طلب والدي من أريام الحضور وقال لها: بنيتي هذا جهاد جاء خاطباً، اجلسي معه واسألي ما بدا لك، وتركهما في غرفة الضيافة وجلس معنا في غرفة المعيشة.

أخبرتني أريام أن حديثها مع جهاد كان مريحاً، وأنها تعرفت منه على سبب انفصاله عن زوجته، وعن مكان سكنه، وظروف وظيفته، وأخبرته عن طبيعة وظيفتها، وأنها ملتزمة بثلث راتبها أقساطاً للبنك ثمناً لشقة أخيها المغترب في الخليج، وسألته عن رأيه في الارتباط بفتاة لا ترتدي الحجاب، ولا تلتزم بالزي الشرعي، واتفقا على أن يفكر كل منهما بما عرف عن الآخر ويقرر مصير هذه العِلاقة، وتبادلا أرقام الهواتف، على أن يبادر جهاد بالاتصال بها بعد يومين ليبلغها رأيه في ذلك.

سيلين
مفارقة

لاحظت في الدفاتر التي كان يسلمني إياها مريضي في كل جلسة علاجية أنه يؤشر بعض الجمل بخط يميزها عن باقي النص المكتوب، أو بوضع دائرة حول بعض الجمل، كانت هذه الملاحظات تتعلق بحالات وظروف حياتية يومية مختلفة.

فمرة يؤشر تحت جملة "رافقتني زوجتي إلى العقبة وقضينا أمسية جميلة"، ومرة كتب "ذهبت برفقة عمي لحضور مناسبة اجتماعية"، مرة كتب "انتظمت في دورة تدريبية لتطوير مهاراتي في التدقيق المالي"، ومرة كتب "استثمرت جزءاً من مدخراتي في شراء قطعة أرض".

لم تكن هذه الكتابات بالنسبة لي شيئاً من الخربشات، أو ترف الكتابة، بل وجدت أن هذه الكتابات لشخص يعاني حالة متلازمة تنامي شعور الفقد تدل دلالة واضحة على أن مريضي يعيش حالة ملازمة لهذه الحالة المرضية، وهي حالة إيجابية طاغية تتولد مع الفرد نتيجة استعداداته النفسية لمواجهة الحياة وتقبلها بطريقة تكيفية من خلال استغلال كامل طاقاته وقدراته وإمكاناته لتنمية قوته الذاتية حتى يصل لحالة من الرفاه النفسي الدائم.

هذه الحالة النفسية التي يعيشها مريضي لم تكن حالة عرضية بل هي حالة متأصلة في سلوكه، وطباعه الشخصية، فهي محرك دفع ذاتي تجعله

دائم البحث عن تطوير ذاته، واكتساب الخبرات المفيدة، والتوسع في العلاقات الاجتماعية الإيجابية التي تزيد فرص تفاعله الاجتماعي، وتبرز استقلاله الذاتي، لأنه يرى أن الحياة تستحق أن يعيشها بجمالها وتحقيق غاية وجوده فيها.

لذا هو يعيش حياته في حالة من التصالح مع نفسه للبقاء في حالة السعادة التي ينشدها، ونظرة تفاؤلية للحياة الاجتماعية التي يعيشها.

المفارقة التي يعيشها مريضي بين حالة الرفاه النفسي والتصالح مع الذات، وحالة "متلازمة تنامي شعور الفقد"، شكلت لديه حالة من الصراع النفسي تظهر فيها دائماً سمات مميزة تثبت تغلب حالة الرفاه النفسي، التي تبدو من كتاباته أنها طبيعة متأصلة فيه، قادتني نتائج التحليل النفسي لشخصيته للاعتقاد بأن حالته المرضية "متلازمة تنامي شعور الفقد"، هي تابع غير مستقل من تلك التوابع المؤثرة تعود في مركزيتها وجوهرها لتفاعل عنصري الكفاءة البيئية والاستقلالية الشخصية في اتخاذه القرارات المصيرية في حياته.

لهذا عُدت إلى تتبع ما كتب عن هذين العنصرين في دفاتره التي تسلمتها منه، وتحققت من الإشارات العرضية التي كانت تتضمنها صفحات تلك الدفاتر.

وجدت أنه أسهب في الحديث عن ظروف تكوينه الشخصية المتعلقة بظروفه الأسرية وتنشئته الشخصية، وما كتبه عن ظروف بيئته

الاجتماعية، ووجدت أن كتاباته تقود الى تفسير شخصيته تفسيراً دقيقاً وأن المعلومات التي كانت تحتويها تلك الدفاتر قادرة على تكوين صورة انطباعية دقيقة عن استعداداته النفسية وقدرته على التعامل مع المتغيرات بدرجة عالية من الحكمة والاتزان.

في إحدى الصفحات كتب: إنها على بعد همسة مني، كلمة واحدة تدخلها حياتي، لكن تبتعد بيني وبينها الخطى، قبل أعوام كان قرار الارتباط بشريكة الحياة متوقفاً على القدرة المالية، اليوم هو متوقف على ذلك القرار الذي كان عهداً نفسياً بأن تكون طريقي ومسيرتي غير تلك التي عشت حلوها ومرها في ظل والدي، وأن أجعل من اخترتها شريكة لي في حياتي أسعد الناس بشراكتي.

وفي صفحة أخرى كتب: لامَست روحي ذات مرة نوراً أظلمت دنياي بموتها، لم تسعد بشقاوة الصبا، ولم تشقها فرحة الأبناء، ذهبت من الدنيا كما قدمت إليها، ما كان ذنبها إلا أن أباها طلق أمها، فعاشت يتمه بعيدة عن حضن الأمومة في طفولتها، فكان تعاقب السنين يزيد في عدد سنوات عمرها، ويزداد قلبها قساوة على والدين فرقهما العناد، قالوا لها إنه النصيب، فقالت: بل لم يرعوا لي حرمة وحقاً.

وفي صفحة كتب: إن الحلم الذي تسري في جسدي رعشته، يُثير في نفسي مشاعر أعرف أنها ممتدة من ميراث أبي، عاش حياته في قلق واكتئاب وحالة مفرطة من عدم الرضا، لم يكن مريضاً لكن لم يكن

صاحب مزاج سليم، سرعان ما يغضب، وسرعان ما يستمر في حياته كأن شيئاً لم يكن، أرى سلوكه ماثلاً أمامي كل ما تعرضت لموقف يستفزني، فأستغيث بما كنت أشهده من صبر أمي عليه فأفوز في ترويض نفسي.

هذه الدوافع مجتمعة كانت السبب في بقائه يسير في محاذاة الصمت حتى لا يُكشف له سراً، كانت تصوراته لحياة مختلفة مع تلك الفتاة تصطدم بمقاربتها مع حياته الأسرية، لم يستطع تصور حالة ذهنية قادرة على تركيب صورة تجمع في إطارها هذين المكونين، فكانت آماله وأحلامه تأخذه في طريق، وتعود به سلوكياته ورفاهيته النفسية مع الطريق المعاكس.

آصف

سحر المكان

مضت الأيام سريعاً، اتصلت بي كاساندرا تخبرني أنها ستصل إلى مطار الملك حسين بعد يومين، الساعة السابعة مساءً، وأنها ستقيم تلك الليلة في العقبة حتى تتمكن في اليوم التالي من التوجه إلى مدينة البتراء.

اتفقنا على الالتقاء سوياً وأن أتولى مسألة الحجز لها في الفندق، وتنظيم رحلتها إلى البتراء.

ما أنكر أنني أخفي بعض أسراري عن زوجتي، وعلاقة صداقتي بكساندرا إحداها، لن تستوعب الغريزة الأنثوية لدى زوجتي أن أكون في علاقة صداقة بسيده، مهما كانت درجة الثقة بيننا كبيرة، لهذا احرص على عدم اكتشافها لهذه الصداقة.

صحيح أني أحتفظ بأسماء الأشخاص في هاتفي بأسمائهم الحقيقة وكساندرا كحال أي منهم، وأن زوجتي تطلع على قوائم الاتصال أو حالات الواتساب المقترنة بها دون اعتراض؛ لأنها تدرك أن طبيعة عملي تتطلب الإحاطة بشبكة اتصالات واسعة مع أشخاص بمختلف المستويات والجنسيات.

التقيتها مساء ذلك اليوم في المطار وصحبتها إلى الفندق لتضع حقائبها، خرجنا بعدها في جولة طفنا خلالها أسواق مدينة العقبة.

تناولنا على العشاء وجبة صيادية السمك، أشهر أكلات مدينة العقبة.

أكملنا سهرتنا على الشاطئ، حتى منتصف الليل، عُدت بها بعد ذلك إلى الفندق، وغادرت إلى منزلي.

صباح اليوم التالي رافقتها بسيارتي إلى مدينة البتراء مصطحبة معها حقيبة أمتعتها، إذ إنها ستستقل الحافلة إلى عمان نهاية الرحلة.

دار حديث طويل بيننا خلال انتقالنا من العقبة إلى البتراء، كان حديثاً متشعباً في مواضيع مختلفة، من بينها توقعي سبب زيارتها لمنطقة العُلا ومدائن صالح.

قلتُ لها أقدر تماماً مشاعرك تجاه تاريخ مايسنر باشا، وأنه لم يُسمح له خلال عمله في إدارة مشروع مد خط سكة حديد الحجاز تجاوز منطقة تبوك بسبب ديانته، وأنه اضطر لنقل صلاحياته للمهندس العثماني مختار بك.

أعتقد أنك تريدين أن يرى مايسنر باشا بعينيك تلك البلاد التي حيل بينه وبينها، قرأتُ في مذكراته أن السلطات العثمانية استندت إلى أدلة شرعية تُحرم على غير المسلمين الدخول إلى الأراضي المقدسة، حتى وإن كان هذا الشخص سيؤدي إليها خدمات إنسانية عظيمة.

لم تنكر

بل قالت: إن من حقها التعرف على إرث رجل يعد من أصولها.

أخبرتها أنني سآخذها قبل التوجه إلى البتراء إلى المكان الذي أقيم فيه الاحتفال الأول على مستوى السلطنة العثمانية فرحاً بوصول الخط الحديدي إلى واحة معان بتاريخ الأول من شهر أيلول في عام 1904، الذي وافق ذكرى جلوس السلطان عبدالحميد الثاني على عرش السلطنة العثمانية.

وصلنا موقع إدارة سكة الحديد في منطقة المحطة جنوب شرق مدينة معان.

أخبرتها أن في هذه المنطقة مبنى كان يستخدم مركزاً لإدارة سكة حديد الحجاز، ولاحقاً أصبح مقراً للملك المؤسس عند قدومه من الحجاز أواخر عام 1920، ومنه انطلقت نواة تأسيس الدولة الأردنية الحديثة.

رافقنا الدليل المكلف بمرافقة زوار المتحف، واطلعنا على موجودات المتحف في المبنى الرئيس وهو القصر الملكي والذي يمثل تاريخ الإمارة، ومن ثم مبنى النهضة الذي يمثل تاريخ الثورة العربية الكبرى.

الساحات والمباني والغرف منظمة بطريقة رائعة جداً، مقسمة بحيث تعرض بشكل متسلسل التاريخ المعاصر للدولة الأردنية حتى إعلان الاستقلال وميلاد المملكة.

ورغم الدهشـة التي تملكتنا خلال الزيارة كانت المفاجأة التي لم نتوقعها، في المبنى الأخير الذي زرناه بعد مرورنا في شارع الأوسمة كان (الهنجر) داخله كان يوجد مجسم يحاكي خط سير القطار وأهم المحطات التي يمر بها.

بعد مشاهدتنا لهذا المجسم دوت صرخة الفرح التي أطلقتها كاساندرا حين شاهدت صورة ماسنر باشا والوصف التعريفي بحضرته على جدارية في المبنى.

حينها قالت: ما أعظمكم لم يغب عنكم تخليد ذكرى مهندس هذا العمل الرائع، صورة جد والدتي هذا أجمل مكان ألتقط فيه صورة تجمعني بذكراه.

أنهينا زيارتنا وكساندرا في أسعد لحظات حياتها.

في طريق عودتنا دخلنا وسط المدينة، قلت لها أن مدينة معان قديمة تذكر بعض المصادر أن تاريخ استيطانها يعود إلى عام 4000 قبل الميلاد، وأنها كانت ترتبط بحضارة مجان.

عثر فيها على قنوات ري تتصل فيما بينها بأنفاق وأخاديد لتوصيل المياه من آبار الضواوي إلى الأراضي الزراعية، التي كانت مثالاً للواحات الزراعية في الصحراء العربية عموماً وبادية الشام خصوصاً.

زرنا سوقها الشعبي المعروف بسوق البدو وسط المدينة.

رأت معروضات السوق وسألتني من يشتري هذه التراثيات؟

قلت لها: لم تصــل بعد لتباع كتراث، يتم تداولها في الســوق لأنها حاجات أساسية فهي تدخل في نمط معيشة المجتمع المحلي في المدينة والمحافظة.

الناس متمســكة بهذه الســلع لأن بديلها المتحضــر لم يلب نمط معيشتهم البسيط الذي يعتادونه.

تقافزت علامات التعجب والاستفهام من محياها!

انطلقنا إلى البتراء، بدأنا زيارتنا بالتجول في متحفها الواقع في مركز الزوار.

أُعجبت كســاندرا جداً بمقتنيات المتحف الأثرية، والتقطت العديد من الصور، ثم خرجنا إلى ساحة مركز الزوار.

قطعتُ تذكرتان من شباك التذاكر، ثم توجهنا إلى محل بيع النثريات، اشتريت لنفسي قبعة، واشتريت لكاساندرا شماغاً أُرْجُوانياً لففته على رأسها.

أبهرها السيق المؤدي للمدينة الأثرية، ووعدتها بمشــهد خلاب عند نهايته.

صرخت من الدهشة عندما شاهدت الخزنة أمامها.

التقطتُ لها العديد من الصــور في نهاية السـيق والخزنة ظاهرة في خلفيتها.

وصلنا الخزنة وتأملتها كثيراً.

ثم توجهنا قليلاً لنقف على الزاوية المرتفعة أسفل جبل خبثة لتلتقط صوراً بانوراميه لها ولواجهة الخزنة.

عند نزولنا إلى السـاحة أمام الخزنة ركبت كسـاندرا أحد الجمال المغطى سنامها بقطع من المنسـوجات الصـوفية والقطنية الملونة، على طريقة أهل البادية الأردنية، والتقطتُ لها العديد من الصور، ثم مضينا في طريقنا.

صــورتها في فيديو قصـير والتقطت لها عدداً من الصــور وهي تعبر البوابة الرومانية القديمة.

مررنا بالمدرج النبطي

والتقطت عدداً من الصــور لمبنى المحكمة، والأضـرحة في شـارع الواجهات، والشارع المبلط، والمعبد الكبير، وقصر البنت.

حين وصـلنا إلى الاسـتراحة المجاورة لقصـر البنت وشـربنا عصير البرتقال، وعدتَها بمفاجأة أخرى إن كانت ترغب بالاسـتمرار في هذه الرحلة.

شريطة ألا تتراجع أبداً إذا بدأنا خطوتنا الأولى

وافقت وانطلقنا نصعد الدرج المتعرج حتى أكدانا التعب والإرهاق من صعود هذا الطريق الصعب.

كانت المفاجأة عندما وصلنا نهايته

وبدأنا ننحدر الدرجات الأخيرة في مسار الدير.

قلت لها: أعطني يدك، وأغمضي عينيك، ولا تفتحيهما حتى أطلب منك ذلك.

انحرفتُ بها يمينا وأنا أُحاذرها من الحجارة التي تعترض طريقها.

وعندما أوصلتها الساحة الرحبة لتقف أمام واجهة الدير قلت لها: الآن عبري عن رأيك بهذا المنظر الرائع.

فتحت عينيها ولم تسيطر على يديها التي أغلقت بهما فمها من الدهشة لجمال هذا الأثر العظيم.

التقطت لها العديد من الصور

وتوجهنا للاستراحة المقابلة لواجهة الدير

التقطنا أنفاسنا واسترحنا من التعب الذي لحقنا من صعود الدرج

سألتني لماذا لا تقوم السلطات بعمل مسار قاطرات معلقة "تلفريك" بين الساحة أمام قصر البنت، والدير لتسهيل وصول الزوار؟

المتعة التي شعرتُ بها رفقة كاساندرا في زيارتها إلى البتراء لم أشعر بها في المرات كلها التي سبق أن زرت فيها البتراء، سوى تلك الرحلة التي اصطحبت بها زوجتي حتى وصلنا قمة جبل خبثة.

مسار الرحلة كان مجهداً يتطلب صعود مئات الدرجات حتى تُطل على واجهة الخزنة من عل، وتستمتع بمشهد أخاذ.

انقضت ساعاتنا الخمس في زيارة البتراء وعدنا أدراجنا عائدين.

تناولنا غداءنا في وادي موسى وانتظرتُها حتى انطلقت بها الحافلة إلى عمان وعدت إلى منزلي.

انتماء

عاطفة وأمل

أقل من ثلاثة أشهر كانت أريام تركب الطائرة برفقة زوجها للعمل في قطر، بعد أن تمكن شقيقي راسم من توفير فرصة عمل لكل منهما، غادرتنا وتركتني وحيدة أقلب مواجعي. أيام سفرها الأولى كانت تتواصل معي بشكل يومي، ثم بدأت تتقطع اتصالاتها في بعض الأحيان يمر أسبوعاً كاملاً من غير تواصل بيننا، أقدر انشغالها بعملها وشؤون زوجها وبيتها، ما كان لي من سلوة إلا قضاء وقتي بتصفح وسائل التواصل الاجتماعي، وبعض الوقت الذي أمضيه بمجالسة أمي وأبي.

أبلغني رئيس قسمي بضرورة مراجعة هيئة مكافحة الفساد يوم الأربعاء، للإدلاء بشهادتي في قضية شركة رواد التصنيع النانوي، حضرتُ في الوقت المحدد، وبعد الانتهاء التقيت آصف الذي كان مطلوباً منه الحضور للغاية نفسها، بعد انتهاء عملنا في الهيئة اصطحبني آصف لتناول فنجان قهوة، ثم يوصلني في طريقه إلى البنك، في الطريق اتفقنا على المضي باتجاه مكتبة العاصمة قبل العودة إلى البنك.

ما إن دخلنا حتى استقبل مدير المكتبة آصف بالسلام والترحيب الحار، ثم عرّفه آصف بي، فرد على آصف بأنني معروفة لديهم باعتباري زبونة المكتبة.

همّ صاحب المكتبة بطلب فنجانين من القهوة لنا، فبادره آصف معتذراً، وأننا نرغب في التجول بالمكتبة لشراء بعض الكتب، وسلمه قائمة ببعض العناوين التي يرغب الحصول عليها.

صالة عرض الكتب في المكتبة العاصمة مقسمة على شكل حجرات وكل حجرة تتكون جدرانها من أرفف للكتب، من أرضيتها حتى سقفها، توجه آصف لتلك الزاوية التي شهدت لقاءنا الأول قبل تسعة أشهر، كنت برفقته، تناول ثلاث روايات، وتناولت بدوري رواية "أنت لي" التي كانت مبرزة على الرف وكأنها تقول ها أنا خُذيني.

كانت جولتنا في المكتبة سريعة كنتُ خلالها سعيدة جداً برفقة آصف، وانتابني شعور عظيم بالراحة، نقد آصف صاحب المكتبة ثمن الكتب والروايات التي ابتاعها وأصر على دفع ثمن الرواية التي اخترتها، وقال لي أخبريني ماذا حل بوليد ورغد بعد أن تقرأيها.

سأل صاحب المكتبة آصف هل جئت في زيارة سريعة إلينا اليوم أم جئت لعمل؟

رد آصف: جئت للإدلاء بإفادتي في قضية مالية، لكن لو تعرف أكثر ما ساءني في هذا الاستدعاء؟

قال له ماذا؟

قال آصف: وأنا أقرأ أسماء المدعى عليهم في قضية التسهيلات المالية التي تورطت بها الشركة، والأطراف الأخرى المشاركة معها، قرأت اسم شقيق سلافة، كان وسيطاً يعمل في إحدى الشركات التي شاركت في جريمة تبييض الأموال والتسهيلات المالية بتمرير عمليات تجارية وهمية للإيهام بوجود نشاط تجاري حيوي للشركة.

قال صاحب المكتبة رحمها الله لم تذق يوم سعادة في هذه الدنيا.

بادرت إلى سؤال آصف عن قصة سلافة حتى ما أضيع على نفسي فرصة معرفة قصتها التي علقت في ذهني منذ حدثني صاحب المكتبة عن علاقة الود التي جمعتها بآصف.

قال آصف موجهاً الكلام لي: سلافة رحمها الله زميلة دراسة تخرجنا معاً في الجامعة الأردنية، هي في تخصص المختبرات والتحاليل الطبية، وأنا في تخصص العلوم المالية والمصرفية، والدها صاحب السكن الذي كنت أستأجره مع زملائي خلال دراستنا في منطقة صويلح، كان ذلك السكن جزءاً من منزلهم، فصله والدها عن بقية المنزل بقاطع من الطوب.

كان والدها حاد المزاج سيئ السلوك لا يكاد يستفيق من السكر، وكانت والدتها تتحمل أذيته هي وأبناؤها، حتى وصلت بهم الحال أن هرب شقيقاها من البيت وتركوها وأمها في مواجهة هذا الأب المتسلط بذيء اللسان.

كنا كل مساء نسمع صراخه وشتمه لزوجته وابنته، ولا نكاد نراه على حال سوية إلا يوم نرسل له إيجار السكن، كنت أعمل حينها في المدة المسائية بسوبر ماركت، أتقاضى أجراً لا يزيد عن 75 ديناراً في الشهر، يذهب ثلثه مساهمة في أجرة السكن.

لم تكن تربطني بها أي علاقة خلال تلك المدة، وإنما جاءت هذه العِلاقة بعد تعييني في البنك، إذ عُدت إلى السكن في ذلك البيت مجدداً برفقة بعض الطلاب الجامعيين، ربما كان سبب عودتي إلى ذلك المكان أنني كنت أعرف المنطقة، وكانت إيجارات السكن التشاركي فيها مقبولة، ثم إنني أجد بعض الأصدقاء يؤنسون وحدتي بعد وقت العمل، استمرت تلك الحالة عشر سنوات، خلالها توفيت والدة سلافة، وسجن والدها لتورطه بقتلها.

عندما بقيت سلافة وحيدة في هذا العالم لم تجد من يقف بجانبها إلا خالها، الذي وقع في مشكلات مع زوجته بسبب عطفه عليها وإصراره على إقامتها في منزله بعد أن رفض أعمامها استقبالها في بيوتهم بحجج وأعذار واهية، ولما ضاقت بخالها الدنيا من مناكدة زوجته بسببها اقنع ولده الكبير جابر بالزواج بها والإقامة في منزل والدها، على الرغم من معارضة زوجته ورفضها الفكرة، ورغم صعوبة الظروف، تم الزواج، لم تحضر الوالدة عرس ابنها، ولم تجبر السنوات الخمس اللاحقة خاطرها، وزاد الأمر سوءاً مرض سلافة، الذي لم يمهلها طويلاً.

توثقت علاقتي الشخصية بسلافة خلال توجه كل منا إلى عمله صباحاً، غالباً يكون خروجنا في وقت واحد، لأن مركز عملها قريب من البنك، تبادلنا الحديث كثيراً، ومع مرور الوقت بدأت أشعر بأنها قريبة جداً مني وأظنها كذلك، فلم تعد بيننا أي رسميات وأعرف عن تفاصيل حياتها كل شيء وهي كذلك، وكنت أجالسها كثيراً نهاية الأسبوع وفي العطل الفصلية في الوقت الذي يغادر فيه شركائي في السكن إلى أهليهم.

زوجها عطوف جداً عليها لكنه كان يعيش حالة من الانفصام في المشاعر، فهو يحب أمه ولا يصبر على فراقها، وهي ترفض لقاءه أو استقباله في المنزل لزواجه بسلافة، وسلافة لا حول لها ولا قوة في هذا العالم، ولم يكن في مقدوره هو وأبيه تركها كما فعل عمومتها وأبنائهم.

التقينا في هذه المكتبة مرات كثيرة بعد زواجي وانتقالي من السكن في صويلح إلى الهاشمي الشمالي، كانت سلافة من النوع اليائس. مسيرة حياتها كلها لم تعطها فرصة الوثوق في النفس، ولم تسعفها على المواجهة، بقيت مستكنة، إخوتها تشردوا لا تعرف عنهم شيئاً، والدها عربيد مجرم لم تتخلص من تهديده ووعيده حتى وهو في السجن، كان يفرض عليها إرسال نصف راتبها له في السجن، أمها ماتت بيد والدها، أعمامها تخلوا عنها، زوجها عاشرها خمس سنوات وهو يتمنى موتها، وعند وفاتها كان أكثر من على وجه الأرض حزناً عليها.

شعرتُ بالحزن الذي صار إليه آصف من استعادة ذكرياته مع سلافة، وقرأتُ في عينيه أنه كان يشعر بالمسؤولية تجاهها، وأنها كانت تعني له الشيء الكثير، وكان عجبي من انفتاح علاقته بها، وهي امرأة متزوجة، وإن كانت ظروفها سيئة إلى هذا الحد، لكن ما لمسته أن عطف آصف عليها كان هو وحده ما ساعدها على الشعور بإنسانيتها.

الفتاة منا عندما تجد من يشعر بها تنجذب إليه، وتتمسك بأي نوع من أنواع العلاقات التي يمكن أن تربطها به، ذلك إن أحسنت اختيار الأصدقاء والمعارف، وتعظم هذه العِلاقة إن كانت خفية تلامس الروح، تأنس إحدانا إن جاءها اتصال أو رسالة من صديق يطمئن عليها، تسعد بمتابعته لأحوالها وتقصي أخبارها، أي نوع يبديه من الاهتمام يكون مقدراً عندها، وتؤمن أن المشاعر الجميلة هي أكبر النعم، ويفوز بقلبها دائماً من كانت صنعته جبر الخواطر.

آصف

مرارة وألم

أنا أكثر الناس تعلماً من تجربة الحياة المريرة التي عاشتها سلافة، في ظل أسرة طغت فيها الطبائع الشائنة لوالدها، وقلبت حياة عائلتها كلها إلى جحيم، أذكر الكثير من المرات التي خرج فيها أشقاؤها لحمل والدهم وإدخاله إلى منزلهم بعد أن فعلت الخمر برأسه ما فعلت، تخر قواه، يبدأ بالسباب والشتم والتحقير، كان أكثر ما يوجه كلامه البذيء لزوجته، يتحدث عنها بحضورها وغيابها.

كم تساءلتُ ما الذي ربط مصير زوجته به؟ كيف قبلت الزواج به؟

لماذا ارتضى لها أهلها هذا الزواج من شخص منحط في سلوكه وأخلاقه؟ لا سيما أنهم كانوا على معرفة بكل تفاصيل حياته قبل زواجه من ابنتهم.

كيف استطاعت هذه الزوجة المسكينة تحمله؟ عرفتها منذ كنتُ جاراً لهم، امرأة هادئة، متسامحة، ودودة، كانت تكلنا برعايتها يوم كنا طلاباً في الجامعة كما كانت تعامل أبناءها، وإن كانت حيلتها على قدر ما تقدمه لأبنائها.

لم يفلح ولداها في اجتياز امتحان الثانوية العامة، عمل ابنها الكبير (كنترول باص)، وعمل شقيقه الأصغر في مطعم، كانت سطوة والدهم

عليهم كبيرة، لم يكونا قادرين على تحمل سلوكياته المنفرة في تعامله مع والدتهم التي تصل إلى الضرب المبرح، حتى إنهم في أكثر من مرة نقلاها إلى المستشفى، مرة تذرعوا بسقوطها من الدرج، ومرة ادعوا وقوعها عن كرسي وهي تنظف النوافذ.

آه يا أبا سلافة! الخمر لا تصلح للفقراء، الخمر مشروب الأغنياء وبريستيج حياتهم، يشربونها ويتلذذون بها، أما الفقراء فيشربونها ليقلبوا حياتهم من جحيم إلى جحيم على من يحيط بهم، والمخدرات التي وصلت للطبقة المسحوقة المهمشة عملت عملها في سلوكيات المتعاطين.

عرفتُ عن أبي سلافة أنه كان منبوذاً من أبيه؛ لأنه لا يتورع عن أي عمل فاحش يسيء إلى سمعتهم. أوقعهم في مشكلات كثيرة، مرة قضايا سرقات، ومرة قضايا إتاوات وبلطجة، وكانت القضية التي فرقت بينهم وكانت سبباً في طرده من المنزل أنه كان على علاقة سيئة بأرملة تسكن بجوار منزلهم، امرأة مات عنها زوجها برعايتها ثلاثة أطفال شابة لم تصل الأربعين من عمرها، لم يلتفت والدها وأشقاؤها إليها، بل تركوها تواجه مصيرها في حياة لا ترحم، ومجتمع فيه كل الأطياف السلوكية.

تقرب إليها والد سلافة قبل أن تولد سلافة، وقبل أن يحلم بالزواج من أمها، كان حينها شاباً في العشرين من عمره، معروفاً بطيشه، وسوء سلوكه، لكن هذه الجارة الساذجة، عرفت معنى الزوجية، واليوم هي

أرملة، وهذا شاب جسور، كلمها مرة، وقرع باب بيتها مرة، واعدها ليلة، حتى اعتادت معاكسته، وألِفت إليه، فتحت له باب بيتها ساعة ليل، تجالسا ساعة سمر، مرة بعد مرة تجاسر عليها حتى ظن أنها له، متى شاء جاءها، كانت تتمنع حيناً، وتطلبه حيناً، حتى جاءت ساعة لا تنفع فيها دموع العيون.

حملت منه، لم يعترف بجريمته، وما نفعها أنها اعترفت عليه، ماتت بطعنة سكين مزقت حاضر أبنائها الثلاث ومستقبلهم، قبل أن تمزق قلبها.

وأبو سلافة عاد يرتع لا يجد من يقف في وجهه بعد وفاة والده، ومعاداته لأشقائه وشقيقاته، تركوا له منزل والدهم ميراثاً، وتخلوا عنه تخلي من اشترى حذاءً جديداً عن حذائه القديم البالي.

أقل من عام على وفاة والده تزوج بأم سلافة، أسكنها بيت أبيه، وبدأت رحلتها مع عذابات رجل لا يرى في المرأة إلا روح الأرملة التي تتسلط عليه كلما شرب كأساً من خمر، تقول له: هي كما أنا، فاشرب من كأسك ما سقيتني. لم يرَ في أبنائه وبنته أبناءً له، هذه هي الحياة دروسها عبر ومواقفها ديون.

استفاق أبو سلافة بين يدي المحقق الذي واجهه بدعوى ارتكابه جريمة قتل زوجته طعناً بسكين، وأن نتائج التقارير الطبية أفادت أنه كان تحت تأثير المخدرات والمسكرات، زُج به في السجن، السجن رحمة

وجائزة لمن هم مثله. لم تستمر ضيافته طويلاً، فبعد وفاة ابنته سلافة وافق أخوالها على الصلح، وخرج من سجنه، ليلقى حتفه متسمماً بجرعة مخدرات.

قضت سلافة آخر عشرة أيام من حياتها في مستشفى البشير، كنت أزورها مساء كل يوم، كان زوجها الشخص الوحيد الذي يرافقها، كنت أشعر بما يختلج صدره من حسرة على سوء حالتها التي آلت إليها.

يوم وفاتها ما استطاع الوقوف على قدميه من هول الفاجعة، بكى حتى رق لحالته كل من مر في ذلك الممر المؤدي إلى ثلاجة الموتى، كلهم به من الحزن ما به، لكن لم يكن منهم أحداً يشعر بغصة الفقد لزوجة تزوجها ليخلصها من نكد الدنيا، ليعيش في نكد أمه. لا يكره الرجل أمه لكنه لم يعد يحبها، لأنها لم ترأف يوماً لحالة سلافة، حُرقة الحُزن في نفسه أذهبت ما بقي فيها من بر لأمه.

كان ينتظر موت سلافة ليعود إلى منزل يجمع أفراد أُسرته، لكن خروجه في جنازتها أذهب رغبته، لم يعد لذلك المنزل، حتى في أيام العزاء الثلاثة لم يقبل أن يلتق بأمه، واستقر في منزله حتى خرج أبو سلافة من سجنه، عندها رحل ولم يأس على شيء تركه.

سيلين
ظل امرأة

في إحدى الجلسات العلاجية فاجأته بسؤال وهو مسترسل في الحديث عن مشاعره تجاهها. كم فتاة تعرفت عليها في حياتك؟ أو كم فتاة جذبتك لها صفة أو سلوك ميزها عن غيرها من النساء؟

لم أكن أريد من وراء هذا السؤال التعرف على عدد معارفه من النساء، كنت أريد أن أخترق شعوره لأُخرج من طبقات نفسه الطبقة الأعمق في اللاوعي التي كانت أساس الحالة الشعورية التي يعيشها، لأن هذه الطريقة كفيلة في كشف البنية النفسية، وبنية الذات عنده من خلال ملاحظة سلسلة الدلالة القائمة على البوح والأفكار، فاستخراج مخزونه في اللاوعي يساعد على التحليل، ويزيد كشف المريض عن نفسه دون تحفظ، وهو بمثابة زلات اللسان عند المتحدث وهفوات القلم عند الكاتب.

ليس مستبعداً أن يكون مرض تنامي شعور الفقد مرتكزاً في نواته الأولى على تراكمات عاطفية مكبوتة، أو لم تصل حد التأثير المستمر في مشاعره، قد تكون ذات موجات عابرة تتقلب باستمرار مع تطور سيرته الشخصية والوظيفية، فالفرد تمره تجارب يومية تقلب مشاعره وترققها من جانب، وأخرى تشكل صدمة شعورية تزيد لديه حالة الرفض.

قد تكون بعض المواقف طبيعية فطرية لكنها تلقى عند بعض الأشخاص رفضاً غير معلن ينتج عنها أحكاماً قطعية شديدة. فلا يمكن لشخص في مثل حالة مريضي الذي يتمتع بطاقة كبيرة من الرفاه النفسي أن يبرر ردة فعل خشنة من فتاة ــ مهما كان الموقف عفوياً ــ أو يتقبل رؤيتها ساخطة ومنفعلة في ردة فعلها تجاه خطأ عفوي أو مقصود وقع في حقها. لكن سيكون موقفه إيجابياً وحكمه قطعياً تجاهها إن تعاملت مع هذا الموقف بأنوثة وحساسية مفرطة.

فالمرأة في نظر مرضى تنامي شعور الفقد رقيقة، أنثوية طبعاً وطابعاً، دفاعها عن نفسها في المواقف الصعبة دموعها.

استجابته لسؤالي أكدت تحليلي النفسي لشخصيته، لأن جميع التجارب العاطفية التي تتابع ذكرها في تلك الجلسة كانت غائبة في حنايا روحه، أيقظها سؤالي، فالرقة العاطفية التي كانت تتراكم في وجدانه طيلة حياته كانت تزداد تهيجاً مع كل حادثة عاطفية عابرة يمر بها، فكانت مشاعره ترق عند سماع صوت حسن، أو رؤية وجه جميل، أو شم رائحة عطرية زكية، أو مشاهدة فعل عفوي لطيف.

اكتشفت أنه يحافظ في عِلاقاته على المسافة بين الانجذاب والسقوط، هو رجل تعبر النساء قلبه، لكن لا تقيم فيه إلا من تشبه نقاءه.

هذه التدفقات العاطفية كانت تغذي مشاعر الود والحنين المكبوتة عنده، ولم تصل لحالة الكشف إلا في موقفين: الموقف الأول، كان

موقف مصطنع روض نفسه على القيام به حتى غدا سلوكًا دائمًا له، وهو انعكاس طبيعي للخروج على إرث تربيته الأسرية، فسلوكه الشخصي والاجتماعي سلوك إيجابي ومتصالح أكسبه مكانه وقبول في حدود أقاربه وأصدقائه ومحيط تفاعله الاجتماعي، وكانت أسرته صاحبة الحظ الأوفر من هذا التدفق العاطفي الإيجابي.

الموقف الثاني، كان تجاه تلك الفتاة التي تعرف عليها مصادفة في وقت كانت حياته الأسرية في أوج تماسكها وتكاملها، إلا أن تنامي مشاعره تجاهها أصبح مسيطراً على تفاعلات مشاعره ومصدر جديد من مصادر تناميها، وهذا ما أوقعه في مواجهة قوية بين مشاعره الرقيقة النابعة من قلبه الذي يجرفه تجاهها، وبين عقله الذي يحدد حاكمية قراراته، ويمنعه من الكشف عن مكنونات نفسه، وضبط مشاعره في حضورها، أو في حضور ذكراها، فالابتسامات المفاجئة، والشرود المتكرر تواجهها حالة مركزة ومستمرة من القمع الفكري الذاتي.

الترابط الشديد بين الموقفين يجعلني أتنبأ بتطور حالته المرضية، التي تسير باتجاه إيجابي تصاعدي وتقترب من حالة التعافي، وستحافظ القيود الصارمة التي تحتكم إليها سلوكياته ونتائج تفكيره على قوة روابط الشعور المتنامي تجاه أسرته، وهي ذاتها التي ستساعده على تحويل مشاعر الرضى والقبول والتعلق التي تتنامى تجاه فتاته على إخراجها من دائرة الوعي واختزانها في دائرة اللاوعي.

لكن هذه المرحلة الانتقالية بين الوعي واللاوعي لا تخضع لعنصر الزمن بقدر ما تخضع لمؤثرات الاتصال والتواصل بينه وبين فتاته، وتحتاج إلى حدث مهم في حياتها يغلق منافذ التفكير الإيجابي تجاهها، وأبسط هذه الأحداث وأكثرها إيجابية أن ترتبط تلك الفتاة بعلاقة عاطفية ظاهره له أو تتزوج، عندها يصل المريض إلى حالة صفرية في تنامي شعور الفقد، ويبدأ بالبحث عن حلول تعويضية تساعده على تخطي المرحلة التي تلاشت مقومات أحداثها ووجودها.

انتماء

في طريق الحياة

تباعدت فترات التواصل بيني وآصف، كان آخر لقاء في منزلنا، حضر يومها ليسلم والدي نسخة روايته التي صورت حياة المهندس الألماني، مضى على ذلك اللقاء سنتان، كان في مرات عدة يُرسل لي التحايا عبر الواتساب، كان لا يفوت فرصة إلا يضع تعليقاً على أي حالة أُضيفها على مواقع التواصل الاجتماعي، فكُنت أشعر بدوام متابعته، لم تَغِب صورته عن مخيلتي.

آصف الشخص الذي أشعر أن معرفته تأتي بالطمأنينة أكثر من أي شخص آخر عرفته، إلا أنني كنت حريصة دائماً على إبقاء علاقتي به في إطار الصداقة والزمالة المهنية فقط، دون أن أسمح لنفسي بالتعلق به أو التفكير في الأمر بشكل يتجاوز حدود تلك العِلاقة.

اختلفت ظروف أسرتي كثيراً بعد فاجعتنا بوفاة والدي، تركنا وحيدتين أمي وأنا، كانت وصيته أن يُدفن في قريته التي ولد فيها، نقلناه ليلتها إلى المستشفى العسكري بعد أن دخل في حالة غيبوبة مفاجئة، وصل المستشفى بعد أن غادرت روحه جسده، حضر أعمامي وعدد من أقاربنا إلى المستشفى صبيحة اليوم التالي، وبين رأي يقول ننقله إلى المقبرة فوراً، ورأي يقول ننتظر أبناءه حتى يحضروا تشييع جثمان والدهم ودفنه، انتهى بهم الرأي إلى الانتظار حتى المساء.

وصل أشقائي مع ساعات العصر، لم تحضر شقيقتي أريام، كانت في شهر حملها السابع، كان زوجها قلقاً عليها، وضغط عليها هو وأشقائي للبقاء وعدم السفر، رافقوا الجنازة من المستشفى العسكري إلى قريتنا في الجنوب، كان أعمامي قد أخذوا استعداداتهم للدفن وإقامة العزاء، وقبل غروب شمس ذلك اليوم غُيب جسد والدي تحت الثرى، نُقلت أنا ووالدتي إلى بيت عمي أبو صالح، حيث أقيم عزاء النساء، مكثنا ثلاث ليال، عدنا بعدها إلى منزلنا في الزرقاء، عاد أشقائي إلى أعمالهم ومواصلة حياتهم كأن شيئاً لم يكن.

ما ذاق لوعة فراق والدي إلا أمي وأنا، تبكيه أمي لأنه رفيقها أكثر من خمسة وأربعين عاماً، كان زوجها وصديقها، كان لها كل شيء في حياتها، عاشا كل منهم حريص على سعادة الآخر، كانا متفاهمين على كل شيء، وكانا مثالاً لنا، عشنا في كنفهم حياة سعيدة، ملؤها الأمان والطمأنينة.

كثُرت تدخلات أعمامي بشؤوننا، وأخوالي ساروا مسيرهم، طلبوا منا مراراً الانتقال إلى السكن في القرية، رأيهم هذا يتعارض مع طبيعة عملي، لا يمكن أن أترك عملي وهو مصدر دخلنا، إلى جانب ما ورثته أمي من راتب والدي التقاعدي.

لم يكن بمقدور أي من أشقائي مساعدتنا مالياً، بالكاد يكفي كل منهم دخله، بل كانوا دائماً يتطلعون إلى مساعدتي المالية لهم، منذ

التحاقي بالعمل وأنا أدفع أقساط شقة أخي راسم، وكانت أريام تدفع أقساط شقة شقيقي الأصغر، وبعد سفرها إلى الخليج برفقة زوجها أصبح مطلوباً مني دفع الأقساط التي كانت تدفعها، دخل أشقائي من أعمالهم التي تغربوا من أجلها بالكاد يكفي مصاريف إقامتهم وعائلاتهم، ونفقات تدريس أبنائهم في المدارس التي تستنفذ أكثر من ثلث دخلهم.

بدأت أشعر بتقرب الدكتور رئيس قسمي واهتمامه الذي استجد بي من مدة وجيزة، سنتين من العمل سوياً لم يعر أي اهتمام بأي من موظفي القسم، بل كنا نشعر أنه لا يبالي في أعمال القسم، ويعدها أقل شأنً من أن يهتم بها، وأذكر أنه عند عودته من السفر والالتحاق بالعمل استغرب كثيراً الدور الذي قام به آصف في كشف قضية التسهيلات المالية التي تورطت بها شركة رواد التصنيع النانوي، ومن وقتها كان ينظر إلى جهودي في العمل بشيء من الانتقاص، وهذا ما جعلني أتجنب التعامل غير الرسمي معه إلى أبعد الحدود.

عِلمنا أنه سيترك العمل في البنك قريباً بعد أن حصل على قرار تعيينه في الجامعة، وأنه سعيد في هذه الفرصة التي كان يسعى لتحقيقها، وبذل غاية ما يستطيع من جهد للوصول إليها.

تأكد لي ذلك عندما طلبني إلى مكتبه وأخبرني في حديث طويل عن طموحه وواقعه الأسري، وانشغال زوجته في عملها وتربية أبنائه ومتطلباتهم التي لا تنتهي، وأنه قرر ترك العمل في البنك ليكون أستاذاً

جامعياً وهذا التغيير في حياته يطمح أن يعززه بالزواج بفتاة متفرغة لتبدأ معه حياته الجديدة، مؤكداً أنه لا نية لديه للتخلي عن زوجته، بل إنه يرى أنها الإنسانة الوحيدة التي قدّرت ظروفه وصبرت معه على حياة الشقاء والتعب حتى وصل إلى ما هو به من مكانة اجتماعية.

استمعت له طيلة وقت حديثه حتى انتهى، ولم أستطع الرد على شيء من كلامه، فكنت في خليجة نفسي استشعر بأنه يريد من وراء هذا الحديث الطويل أن يقول لي بأنني الفتاة التي يرى أنها تناسبه في هذه المرحلة من مراحل حياته، وأنني الشريكة المناسبة في نظره، وينتظر مني الرد على ذلك. لكن تجاهلت ذلك، وجاهدت على ألا تبدو على ملامحي أي تعابير تدل على هذا الفهم. فكان خير جواب أواجهه به هو الصمت وإبداء التعجب.

عندها قال: ست انتماء هل تقبلين أن أتقدم للزواج بك؟

أعرف أن الأمر قد يكون مفاجئاً، وأتمنى أن تفكري فيه قبل أن تتخذي أي قرار، متمنياً أن يكون الرد بالقبول.

ارتبكت عند سماعي كلامه، وبدأت أشعر بتلون وجنتيّ، ونهضت عائدةً إلى مكتبي.

عند عودتي إلى المنزل أخبرت والدتي بما حصل معي، وبدأت تسأل عن الدكتور، وعن أحوال أسرته وأعمار أبنائه، وقالت إنها ما ترى مشكلة

في أن يتزوج رجل بامرأة ثانية، وقالت إن هذا الأمر يعود لكِ، فكري فيه حتى تصلي إلى قرار.

اتصلت بأريام أخبرها الخبر، كان رأيها موافقاً لرأي والدتي، وزادت على ذلك أن قالت هي فرصة لكي تكوني أسرة وتتمكني من الإنجاب قبل فوات الأوان، ولا تنسي أنكِ تجاوزت الخامسة والثلاثين من عمرك، وأن بعض الفرص لا تعوض، ما أقول لك تسرعي، ولكن عليك أن تتخذي القرار المناسب.

شخصية الدكتور شخصية متعالية، حسب ما عرفناه خلال تعاملنا معه، لكن ما يدريني أن يكون هذا الانطباع المتكون عندي ناتجاً عن عدم رضاه عن المستوى الوظيفي الذي يشغله، أو لأنه منشغل دائماً بأمور خارجية لا تتعلق بطبيعة العمل الذي يقوم به، فقد يكون سلوكه الاجتماعي في غير بيئة العمل أكثر رحابة.

قد يكون للوضع الوظيفي الجديد الذي سيحل به تأثير إيجابي على حياته، يغير في سلوكه ونهجه في الحياة، قررت القبول بعرض الزواج، وزُفِفْت في جو من الفرح والسرور، تأملت وحلمت بتكوين أسرة، وها هي الأمنيات تحققت، بعد أسبوع من زواجنا، بدأ الدكتور يناوب في المبيت مرة في منزلنا ومرة في منزله الأول، في الليلة التي يبيتها في منزله الأول كنت أمضي ليلتي في منزل والدتي التي باتت وحيدة بعد أن ذهب كل فرد من أفراد أسرتها في حال سبيله.

بعد زواجي بدأت أشعر بالتغير الذي تمر به والدتي، بدأت صحتها بالتدهور شيئاً فشيئا، اعتلت بالسكري، والضغط، منذ فقدت والدي وهي في حالة سيئة، كانت تكابر حتى لا تُبدِ حُزنها ومرضها، كُنتُ أُنظِم مواعيد مراجعاتها للطبيب يوم السبت، لا يوجد من يرافقها غيري، اختطف الموت زوجها، واختطفت الغربة أبناءها.

اتصلت مراراً بأشقائي أخبرهم أنني لم أعد أقدر على ملء حياة والدتي، فهي تعيش حالة من الاغتراب، وأن عليهم أن يرتبوا أمورهم بأن يعود أحدهم للإقامة قريباً منا، أنا أتكفل بكل شؤونها، قُرب أي منهم سيقوي عزيمتها. لكن، مصالحهم ومستقبل أبنائهم كانت عثرة في طريقهم، لا يمكن لأي منهم التخلي عن عمله، لأن من يعد منهم لن يجد عملاً بالمستوى والدخل الذي يحصل عليه في غربته.

أشغلتني حياتي الزوجية، وزاد عليها زوجي الدكتور هما آخر بأن أصر عليّ أن التحق ببرنامج الماجستير، هذا المشروع بحد ذاته أخذ من وقتي وجهدي الكثير، وحمّلني تكاليف إضافية أنا في غنى عنها، وأبعدني عن والدتي أيام العمل، لكن لم أستطع الوقوف أمام رغبته، ولم يعد بوسعي زيارتها إلا نهاية الأسبوع، ما لم يكن عند زوجي التزام بحضور مناسبة اجتماعية تتطلب حضوري برفقته.

آصف

ضائقة وملاذ

لم تستطع كاساندرا الاستقرار في أمريكا، عرض عليها مديرها في العمل العودة إلى الأردن أو العراق لمواصلة عملها في مركز الدراسات، لتتخطى الحالة النفسية السيئة التي أصابتها بعد فشل عمليات التدخل العلاجي في زراعة الأجنة التي كررت تجربتها ثلاث مرات بلا جدوى، يأسها من شعور الأمومة أثر فيها كثيراً، آثرت العودة إلى العمل في الأردن.

كنتُ على تواصل دائم معها حين كانت في أمريكا، نتبادل الرسائل على مواقع التواصل الاجتماعي، لمست فيها شعورها المرهف، وحالة الوهن والضعف التي سارت إليها، انقلاب تصوراتها الفكرية في العامين المنصرمين كانت حادة لم تستطع تجاوزها بسهولة.

عند وصولها مطار الملكة علياء كنت في استقبالها، إن كانت المرة السابقة فاجأتني في عناقها لي في الكوفي شوب، هذه المرة كنت متوقعاً منها ذلك، لم أُبدِ استغراباً أو تحرجاً من عناقها، بل ربّتُ على ظهرها بكفي، خرجنا من المطار لنتجول في شوارع مدينة عمان، ساعة الغروب قررنا أن نذهب لجبل القلعة، أرادت أن تطل على كل شرق عمان وجنوبها من ذلك المكان البهي الفسيح، جلسنا في الزاوية الشرقية الجنوبية لجبل القلعة، نُطلُ على المدرج الروماني الذي بدأت تنعكس

عليه الأنوار، تنهدت وقالت: كم كانت عظيمة تلك الحضارات التي ماجت على هذه الأرض، حضارة بعد أخرى، ذهبوا وتركوا إرثاً عظيماً خالداً يحكي تاريخهم.

بدأت تحدثني عن ظروف الإقامة في أمريكا، وعن تكلفة المعيشة المرتفعة، وتحكي عن المصاعب الكبيرة التي تواجه جيل الشباب، خصوصاً الفتيات، لم تحتمل البقاء هناك، مع أن دخلها يضعها في صنف متوسطي الدخل، آثرت العودة للأردن، لسببين: محاولة تجاوز فكرة بناء أسرة، ولأن دخلها في الأردن يمكنها من العيش بمستوى ممتاز قياساً بظروف المعيشة في أمريكا.

طلبت كساندرا أن نتناول عشاءً خفيفاً في مطعم شعبي، ولم يكن لدينا خيار يفضُل على اختيار مطعم هاشم، في ذلك الزقاق الذي يتزين بمصابيح الإنارة، وتراص طاولات المطعم وكراسيه، جلسنا وطلبنا صحناً من الحمص، وصحن من الفول، وصحن من المتبل، وحبات الفلافل، كاساندرا تناولت وجبتها كأنها فتاة أردنية جاءت برفقة زوجها لتتناول وجبة العشاء في مطعم هاشم، وتلتقط صوراً تجمعها معه، لتحتفظ بها في ذاكرتها قبل ذاكرة هاتفها، كل مكان في عمان يحمل رمزاً من الرموز التي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ.

بعد تلك الأمسية عدت بها إلى مقر إقامتها التي أبلغها سكرتير مركز الدراسات بأنه جهزه لإقامتها المؤقتة حتى تتمكن من استئجار سكن

مناسب، وذهبتُ أنا إلى الفندق الذي كنت حجزت به للإقامة ليلتين، في صباح اليوم التالي استلمت كاساندرا مهام عملها، وتُرك لها المجال للخروج من العمل ذلك اليوم لاستعادة نشاطها، وتحضير ما يلزمها من احتياجات، قررنا أن نلتقي الساعة العاشرة صباحاً وأن اصحبها في سيارتي لزيارة مدينة السلط.

بدأنا زيارتنا من متحف السلط الأثري، وانطلقنا بعد ذلك نجوب الطرقات حتى وصلنا شارع الحمام، وعند وصولنا ساحة البلدية اختصرنا الطريق الواصل بين شارع الحمام وشارع الخضر عبر الدرج، متجهين باتجاه كنيسة الخضر، هناك في الرحاب الروحانية اكتشفت أن كاساندرا فتاة تحتفظ في قرارة نفسها بثوابت إيمانية، وأنها تستدعي هذه الجذوة الإيمانية كلما مرت في ظروف نفسية صعبة.

بدأت تحدثني عن تعاليم العهد الجديد التي تتحدث عن الرابطة الزوجية، قالت: "يترك الرجل أباه وأمه، ويتحد بزوجته، فيصير الاثنان جسداً واحداً"، ليس هذا فقط بل يقول: "لتكن لكل رجل زوجته، ولكل امرأة زوجها. وليُعط الزوج زوجته كل حقوقها، ولتُعط الزوجة زوجها كل حقوقه، لا سيادة للزوجة على جسدها بل للزوج. ولا سيادة للزوج على جسده، بل للزوجة"، ويفرض على من لا يستطيعون ضبط أنفسهم أن يتزوجوا "لأن الزواج أفضل من التحرق بالشهوة. أما بالنسبة للمتزوجين، [...] على المرأة ألا تسعى إلى الطلاق من زوجها، لكنها

إذا انفصلت عنه، فعليها أن تبقى غير متزوجة، أو أن تسعى إلى التصالح مع زوجها. وعلى الرجل ألا يطلق زوجته".

هذا الترنم الذي فاضت به نفس كساندرا ومشاعرها عن الزواج جعلني أُدرك عميق إحساسها الذي تعيشه، وأُدرك أنها حال الكثيرين. عندما تصيب أحد ضائقة يلجأ إلى مخزونه العقائدي والإيماني يسترجعه حتى يخفف ما لحق به من صعاب يستعصي حلها، فيلجأ إلى قوة قاهرة خفية يدرك في خفايا نفسه قدرتها وعظمتها وأنها هي التي ستخرجه من هذه الأزمة الخانقة التي يعيشها.

الإيمان حقيقة متجذرة في نفوس البشر على الرغم من اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، عظمة الإله مكون من مكونات النفس، تتفعل عند كل إنسان لحظة يأسه من مساعدة كل من هو دونه، ما إن هدأت نفسها في باحة الكنيسة واستعادت استقرارها حتى عدنا مع شارع الخضر الذي انتهى بنا عند الجامع الكبير، ثم عدنا إلى ساحة العين، اشترينا القهوة واحتسيناها في تلك الساحة التي تعد معلماً من معالم مدينة السلط، توجهنا بعدها إلى مركز السلط التراثي.

ختمنا رحلتنا بزيارة بيت فاطمة الزعبي "بيت الضيافة"، الذي يعد خدمة سياحية فريدة في مدينة السلط، واستمتعنا بمذاق الأكلات الشعبية التي قدمتها وخصوصاً ورق الدوالي.

والتقطتُ لكساندرا العديد من الصور وهي مرتدية الزي الشعبي السلطي الذي توفره السيدة فاطمة في بيتها.

الدكتور
رغبة وتحولات

كان حلمي أن أحصـــل على درجة الدكتوراه، وأن أعمل في المجال الأكاديمي، كان الطريق لتحقيق هذا الحلم طويلاً شـــاقـًا كثير العثرات، دفعت ثمنه من راحتي وسـعادتي، شـاركتني زوجتي المشـاق التي مرت بي، تحملت انشغالي عنهم، وتحملت غربتي، وتحملت قسوة الظروف التي وصـــلنا إليها لتوفير الرســـوم الدراســـية، التي كانت على حســـاب أساسيات الحياة ورفاهيتها.

يوم أنهيت دراســـتي وحصـــلت على درجة الدكتوراه ورجعت إلى عملي في البنك، بدأت تتســرب إلى نفســي حالة من عدم الرضـــى عن واقعي الوظيفي، لم أكابد الحياة لأبقى في مكـاني، وتكـاد الفرص كلهـا تتبخر، منشـغل في البحث عن فرصـة العمل في المجال الأكاديمي، ملقيـًا وراء ظهري كل متطلبات العمل، لا عمل لي غير تحويل المهام الرسـمية لموظفي القسم، والمصادقة على نتائج أعمالهم كيف كانت.

كانت زوجتي في منتصف الأربعين من عمرها، وكان أبنائي الثلاثة في ســن المراهقة، أشـغلوها عني، ولـم تعد تقوى على التفرغ لي، كان ذلك يسـتفزني، ولـم أعد أحتمل، عشـت في صـراع مرير بين حبي لها وتقديري لتضحيتها وصبرها معي حتى وصلت إلى ما أنا فيه من مكانة اجتماعية، وبين احتياجاتي لزوجة تنطلق معي في مرحلة جديدة من مراحل الحياة

بكل ما تطلبه من تفرغ وهدوء، فبدأت أفكر في الزواج وكلما زادت رغبتي في ذلك بدأت تبدو لي مشاكلي الأسرية أعظم مما أتصورها، فلم أعد أحتملهم ولم يعودوا يحتملوا انفعالاتي وسرعة غضبي.

تحقق الحلم أخيراً وبدأ يستقر الحال بعد أن جاءت فرصة تعييني في الجامعة، عندها حسمت أمري وقررت الزواج، تجادلت مع زوجتي مراراً في هذا الأمر، كانت أكثر مرونة مني، لم تدع لي فرصة حتى اختلق المشاكل، ولم تتحدث يوماً عن دورها في الحالة التي وصلت إليها، ولم تحاول التأثير في أبنائي حتى يقفوا مني موقفاً يهز صورتي في أذهانهم، بل كانت هي من هيئتهم لقبول فكرة زواجي بامرأة ثانية، لم تكن تحب ذلك ولم يكن من خياراتها لحل مشاكلنا الأسرية، لكنها لم تجعل منه شرارة لدمار الأسرة، كان هدفها دائماً أن تبقى الأسرة قوية متماسكة بكل مكوناتها، لا يشعر أبنائي بالكدر الذي تعيشه، ولم تسمح أن يتسرب لنفوسهم بغض والدهم، أو الشعور بأنه يقدم مصلحته على مصالحهم.

كانت زميلة العمل انتماء الفتاة الوحيدة التي أراها، عزباء في منتصف الثلاثينيات، موظفة ومستقبلها الوظيفي ممتاز، كنت أراقب تصرفاتها وسلوكياتها دون إبداء ذلك، لم تكن تربطني بها أي علاقة سوى ظروف العمل، لم أبد أي تعامل مميز لها دون الموظفين، أكثر ما شدني إليها أنها كانت تتفادى مواجهتي ولا تكاد تعير لي أو لغيري من موظفي القسم اهتماماً، تعاملها مع الجميع بحدود الرسميات، مع أن شخصيتها

شخصية اجتماعية، لكن سلوكها ينم عن الحذر وتجنب المشاكل أو التعرض لردات أفعال مفاجئة.

عندما عزمت أمر الزواج فاتحتها في الموضوع وعرضت عليها الزواج، قبلت، وقررت أن استأجر شقة سكنية في أقرب مكان من منزلهم، ولحسن الحظ استأجرت الشقة في الحي الذي تعيش به، تركت لها فرصة تأثيثها، وتزوجنا.

كنت متعمداً السكن في الحي الذي تسكن به انتماء، فحياتي ستكون مقاسمة بين منزلين، وحتى لا تكون انتماء وحيدة يوم أكون في منزلي الأول، وتتاح لها فرصة قضاء ليلتها مع والدتها تؤنسها في وحدتها، وتكون بالقرب منها لو استدعت الظروف أو طرأ طارئاً.

تغيرت ظروف حياتي كثيراً بعد عملي في الجامعة وساعدتني فرصة زواجي من انتماء في تشعب علاقاتي الاجتماعية الجديدة، كنت فخوراً بها أينما ذهبت، كانت قادرة دائماً على إثبات حضورها في المناسبات الاجتماعية التي نشارك فيها، اقترحت عليها دراسة الماجستير ومن ثم الدكتوراه، كنت أرى أن حصولها على شهادة الدكتوراه ستفتح أمامنا فرص أكبر وتساعدنا على تطور مكانتنا الاجتماعية، تجاوزت انتماء التردد أمام إصراري عليها، واتفقنا أن تستثمر دخلها في الرسوم الجامعية.

انتسبت إلى برنامج الماجستير المسائي في الجامعة، كنت اصحبها مساء كل يوم من الجامعة إلى منزلنا، ونهاية الأسبوع كنت أمضيه في

منزلي الأول بين زوجتي الأولى وأبنائي، في حال دُعيت إلى مناسبة اجتماعية نهاية الأسبوع أتصل بانتماء لتحضر نفسها ونمضي، مع تكرار هذا التصرف بدأت زوجتي الأولى تبدي استياءها، وبدأت تتراجع عن التقليد الشهري الذي كانت اقترحته سابقاً بأن نجتمع نهاية الأسبوع من آخر كل شهر في منزلها، لتبقى انتماء على تواصل مع أبنائي، ويألفوا وجودها في حياتهم.

كنت أستشعر أن تصرف زوجتي الأولى مرده الغيرة بين النساء، وكنت لا أبالي كثيراً بردات أفعالها، وإن كانت هي الأحرص على عدم اطلاع أبنائنا عليها، لكن لم أكن أستطيع فراق انتماء، ولم أعد أطيق الذهاب إلى أي مكان دون رفقتها، فسلوكها خلال خروجنا معاً يروقني كثيراً وكأنها تدرك تماماً ما يعجبني فتقوم به، في حين أن زوجتي الأولى لا تهتم في هذه الأمور، ولا تهتم في مظهرها وكأن لسان حالها يقول كبرنا على هذه الأمور. وأنا أقول بل إننا شباب يجب أن نعيش حياتنا بسعادتها وبهجتها.

انتماء

خيبة أمل

أول خلاف بيني وزوجي الدكتور كان بسبب فتحي موضوع الإنجاب، استشاط غضباً واستنكر تفكيري بالحمل والإنجاب.

قال: كيف وأنتِ تسابقين الوقت لإكمال دراستك؟

كيف لك أن تكابدي مشاق الحمل ويومك مشغول بين العمل والجامعة؟

عليك التخلي عن هذه الفكرة حتى تُنهي مشروع الدراسة! ساعتها لك أن تفكري في ذلك.

لم يدع لي فرصة مواصلة الحديث، لم يترك لي فرصة تذكيره أنني في أواسط الثلاثينيات من عمري، وأن الدراسة تحتاج على أقل التقديرات ست سنوات منذ الآن، عندها أكون دخلت الأربعين، ومن هي التي ستحمل وتنجب في الأربعين!

هذا الرجل تزوجني ليتباهى بي في المجتمع، يريدني نموذجاً ومثلاً لا يريدني زوجة وأُمّا، يريد أن يُشبع غريزته وأن يعيش على طريقته، وما أنا إلا ديكور في حياته، لا تهمه مشاعري ولا يهمه مستقبلي إن لم يكن خادماً لمستقبله.

تركني والغضب يفور من عينيه، وذهب لبيته الأول.

هجرني أسبوعاً كاملاً.

عاد متودداً يراضيني ويسايرني، ويقنعني بأهمية الصبر حتى نبني حياتنا بالطريقة التي تناسب مكانتنا الاجتماعية.

لم أجد سبباً مقنعاً في كلامه، ولكن فهمت أنه ما جاء إلا لأنه مدعو إلى حفلة زواج صديقه، وأنه يريدني أن أرافقه في هذه السهرة، إرضاءً لخاطري.

قبلت الذهاب معه حتى لا أهدم بيتي على رأسي، وعسى أن أجد طريقة أقنعه فيها بأهمية مساعدتي على العلاج لأتمكن من الإنجاب قبل فوات الأوان.

صدرت الإرادة الملكية بمنح محافظ البنك المركزي لقب معالي، كان هذا الخبر ساراً لكل موظفي البنك، في اليوم التالي حضر مجموعة من زملاء العمل من فرع العقبة، كان من بينهم آصف؛ لتهنئة معالي المحافظ بهذه المناسبة، خلال تلك الزيارة زار آصف القسم، وسلم على الزملاء، ورأيت في عينيه كلاماً لا يسمح المكان بإفشائه، كانت آخر مرة حادثني فيها يوم خطبتي، اتصل بي مباركاً متمنياً لي حياة سعيدة.

آه لو تعلم يا آصف بحالي الذي أخفيه حتى عن نفسي، وأتستر عنه خلف الابتسامات المزيفة.

ليتني لم أقبل هذا الزواج، ليتني أستطيع الاستمرار في هذه التجربة.

رجل متعال مريض مهووس بالظهور والحظوة الاجتماعية، دمر بيته الأول لولا حرص زوجته على تماسك أسرتها، وها هو اليوم يدمر حياتي، ويقضي على مستقبلي بهذا الزواج الأُبهي الفارغ من كل القيم الإنسانية التي تؤسس عليها البيوت والأسر.

استذكرت لقاءنا في مكتبة العاصمة، استذكرت يوم تحفيزنا على خلفية قضية التسهيلات المالية، استذكرت زياراته لمنزلنا، استذكرت تعامله مع زملاء العمل، استذكرت أحاديثنا السابقة.

ذكريات رسمت الابتسامة على وجهي، وأعادت لي حب الحياة. كنت أقرأ مقالاته، كان يرى أن الزوج هو المسؤول الأول عن نجاح العِلاقة الزوجية أو فشلها. وكتب أن الزوجة إذا شعرت بالأمان في بيتها الزوجي، فإنها ستخلق فرصاً عديدة لتعزيز الود والتفاهم مع زوجها، وستعبر عن عشقها وحبها وإخلاصها له بلطف كلماتها وحنان تصرفاتها.

وكتب أن الأمان يمنح الزوجة القوة لتكوين حياة أسرية مستقرة ومليئة بالمحبة، وأنها متى فقدت الأمان من طرف زوجها فلن تستطيع العيش في بيئة مضطربة قلقة تعبث بها الأوهام والشكوك، الأمان هو الغطاء الشامل لعناصر نجاح الأسرة، وهو صنيعة الرجل، فإن لم يقدر الزوج على ذلك لن تنجح العِلاقة الأسرية، ستتفتت أواصر الترابط وتنتهي إلى الطلاق أو التشرد والضياع.

التَفِتُ إلى حالي فأجد أنني تزوجت رجلاً يرى نفسه زوجاً لي، أتكفل أنا بدفع إيجار الشقة، ومصاريف المنزل، وفوق ذلك مصاريف الدراسة التي فرضها علي، ومن طرفه لا يرغب في أن أحظى بأهم مطلب تطلبه الزوجة من زواجها، ابناً أو بنتاً تملأ عليها الدنيا، هو يدرك أنني إن غدوت أماً سأنشغل بشؤون الأسرة وأصبح حال الأمهات، ولن أذهب معه أين ما أراد أن يذهب، وهذا عكس ما أراده من الزواج بزوجة ثانية.

تسعة أشهر من الزواج لم أندم بعدها على الطلاق، لكن ندمت على تسرعي في اتخاذ قرار الزواج، لم يكن الدكتور الشخص المناسب لأربط مصيري بمصيره، لم أحتمل أسلوبه في الحياة، لم أستطع أن أخلق حالة من التفاهم بيننا، أنا أريد من الحياة الزوجية شيئاً لا يريده هو، وهو يريد أن أكون له زوجة مثالية تُرضي عنه المجتمع، ويحسده على الارتباط بي. يريد أن يكون حديث الناس، يريد أن يتسلق إلى غير عالمه، ويعيش في غير واقعه، يريد أن يكون شيئاً، لكن لا يريد أن يدفع الثمن، شخص نرجسي، مريض مضطرب، لو بقيت معه لأوصلني حد الكفر.

اضطررت إلى إكمال الفصل الدراسي لمرحلة الماجستير واستقر رأيي على مواصلة الدراسة حتى أُنهي البرنامج وأحصل على شهادة الماجستير، كان هذا الخيار الشيء الوحيد الذي قد يخرجني من حالتي النفسية بعد قرار الطلاق، الذي تعرضت فيه إلى لوم الأقارب والأصدقاء والمعارف، لم يدر في خلد أحد منهم أنني ما اتخذته إلا وأنا مستنفذة مع

طليقي الحيل كلها، كان مطلبي واضحاً ومحدداً، وكان رأيه حازماً متصلباً، لم تفارق شفتاه كلمة (لا)، ولم تغب عن خاطري آمال الأمومة.

يوم وقفنا أمام القاضي للفصل في طلب الطلاق، وجه له القاضي السؤال، لماذا تريد الطلاق؟ أجابه بكل ثقة، سيدي هي من تطلب الطلاق، أنا متمسك بالرابطة الزوجية.

لا أدري حينها أبكي أم ماذا أفعل، شعرت أنه افترى عليّ ويريد أن يحملني مسؤولية هذا القرار، أجبت القاضي، أنني كالنساء تريد من الرابطة الزوجية أن تكون أُماً، لكن الدكتور لا يرى أن لذلك لزوماً في حياته.

وإن كان هذا المصير الذي يريده لي فأنا أفضل ألا أكون زوجة في بيت الزوجية الذي يجمعني به، حتى لا أبقى أمني نفسي بالأماني، فتنقلب حياتي إلى بؤس وندامة.

أندم على قرار الطلاق خيراً من أندم على حياة زوجية لا تعد لوجودي فيها كياناً وشخصية، لا ترى لمصالحي أهمية، سيدي القاضي لا تطلب امرأة الطلاق لأنها كريمة مصونة في بيت الزوجية، تطلب الطلاق حين يكون الزوج لا يريدها زوجة، وإلا لما كان جوابه لحضرتكم بإلقاء اللوم عليّ في هذا القرار.

كان أولى به أن يقول هكذا اتفقنا.

كـان أولى بـه أن يكون على قدر المســؤولية، ويبرر الطلاق بعدم الرغبة في الإنجاب، لا أن يختفي وراء قراري الذي جاء سـبباً لرفضـه أن يجعل من زواجنا زواجاً مبنياً على التواد والرحمة.

سيدي القاضي إن غابت عن تصوره مصلحتي، أرجو ألا تغيب عن بصيرة حضرتكم.

ســاعتها اجتاحني الحنين إلى والدي لم يكن في هذا الكون من يحن عليّ ســواه، أخذه الموت وهو قلق على مســتقبلي، لو كنت حياً يا أبي لسعتني الدنيا، لكنها بغيابك صكت وجهها في وجهي، وتركتني للأحزان تقلبني، وللدموع أذوق علقمها، حتى الكلام لم يعد بمقدوري أن أُفهِمَهُ لمن يلف كفه على أذنه عله يسمع ما أقول.

عُدتُ إلى بيت أمي المسـكينة التي هدها المرض، ألقيت رأسـي في حجرها، وتركت دموعي تذرف، وهي تمســح بيدها على شــعري، تواسيني، صبراً يا ميمه.

سيلين
تعافي

في آخر زيارة جاء فيها إلى العيادة بدا فيها غير ذلك الشــخص الذي كنت اتعامل معه.

كل الجلسـات العلاجية السـابقة كانت لا تخلو من ذكر فتاته التي لم يُفصح لي عن اسمها رغم حرصي على ذلك.

هذه المرة جاء متفائلاً نضِــر الوجه، مبادراً في طرح الأسـئلة، وكأنها جلسة علاجية يتقمص فيها دوري كطبيبة.

فاجأني بالسؤال عن عدم ارتدائي "الذبلة" متسائلاً هل أنتِ مخطوبة أو متزوجة؟

ارتســمت على وجهه ابتســامة حين أخبرته أنني لســت متزوجة ولا مخطوبة.

قال: جئت اليوم أسـلمك آخر دفتر كتبت فيه قبل أن تنتشـي نفسـي عافيتها.

وجدته كاتباً فيه:

في مساحات الروح التي لا تطالها العيون، هناك علاقة فريدة، سرية، دافئة، لا يُدركها إلا من خاضــها بصــدق، علاقة الكاتب بنصــه، أو قل

علاقته بظله، بوجهه الداخلي، بالجزء الذي لا يُرى في المرآة، تلك كانت علاقتي بما كتبت.

لم أكن يوماً كاتباً بالنية، ولا باحثاً عن لقب، كنت رجلاً يعبر الحياة مثل كثيرين، حتى جاءت الكلمة، فانتبهت بي إلى نفسي.

كتبت فقرة فصارت قصة، ثم وجدت نفسي أبحث خلف كل جملة لم تقل كل ما أردته، فأكملتها بفصل، ثم نادى عليّ الحنين، فنسجت خلفه رواية، هناك، في تلك اللحظة، لم أعد كما كنت، خرج منّي إنسان لم أعرفه من قبل، روائي لا يبحث عن النهاية، بل عن المعنى، قاصّ لا يصطاد الحكايات من الخارج، بل من عمق قلبه، وشاعر لم يكن يعرف أنه شاعر.

تلك النصوص ليست أوراقاً، إنها أنا، في لحظات كنت أختفي فيها عن الناس، لأواجهني، كنت أنفصل عن العالم لأعيد تركيبي كما ينبغي.

لا أحد من أصدقائي رأى الجانب الذي كتبته، كانوا يرونني الموظف، الأب، الرجل المتماسك، لكن وحدها الكتابة رأتني أتلوى من الحنين، وأتأرجح على حافة قرار، وأغرق في التفاصيل التي أهرب منها في النهار.

أدخلتني الكتابة عالم الأدب

لا لأنني أردت أن أكون فيه

بل لأنني كنت أبحث عن باب أخرج منه دون أن أُحدث ضجيجاً

وحين دخلت، لم أعد أرغب في مغادرته

لأنني، هناك، كنت أعيش دون محاذير

أُحب دون تحفظ

أعاتب من لا أستطيع مواجهته

وأقول لنفسي ما لا أجرؤ على قوله في مرآة الصباح.

وأعترف كمن يهمس بسرّه لقلبه أنني لم أحبّ شيئًا مثلما أحببت جملة أتممتها بعد حيرة، ولا انتصرت كما انتصرت على ألم حين كتبته.

أنني في كل مرة أمسكت فيها القلم، لم أكن أُنتج أدبًا، بل كنت أُعيد تشكيل نفسي، فخرجت بمقولة أدهشتني: "الخيال ظل الحقيقة".

لقد كتبت روايتي وأهديتها نسخة منها، كتبت لها بخط يدي: "هذه رواية كُتِبت لتقرئيها حرفًا حرفا، فكيف وقد أُهديت إليكِ".

خرج من العيادة قائلاً: لطفًا دكتورة لحظة سأعود!

عاد يحمل باقة زهور.

قال: تفضلي دكتورة!

ما هذه؟

باقة زهور.

أعرف باقة زهور! لكن ما المناسبة؟

قال لن أقول لك بمناسبة التعافي.

لكن أراها تليق بك.

أدار ظهره مودعًا وقال: أراكِ في أحلامي.

الدكتور
يقظة ضمير

مع دخول الدقيقة الأولى من يوم 21 شباط، وبعد أن قضينا سهرتنا في جو يلفه الصمت والكآبة، وضعت هاتفي على المنضدة جانب سريري نظرت في عيني زوجتي متأملاً وقلت لها شكراً لك.

أقولها من أعماق قلبي.

حقـاً كُنتِ السند والعون طيلة حياتنا الزوجية، كُنتِ المُعِينة لي في رحلتي الشاقة للحصول على شهادة الدكتوراه، كُنتِ المعيل لهذه الأسرة التي ما كانت لتبقى متماسكة لولا حرصك على ذلك.

قد أكون انتقصت من قدرك ومكانتك بزواجي بانتماء، قد أجد في نفسي ما يجعلني أبرر هذا الزواج، قد أكون وضعتك في موقف محرج أمام أقاربك ومعارفك الذين قد يتحدثون أمامك أو في غيابك ويقولون ها أنت ساعدتي في وصوله إلى تحقيق حلمه، وكان جزاؤك الزواج عليك.

ما أنكر أنانيتي، ما أنكر أنني في لحظة رسمت مساراً جديداً لحياتنا.

أردت أن أكون شيئاً مختلفاً عما كنت، أردت أن أخرج من رتابة الحياة التي عشتها وأدخل عالماً طالما حلمت أن أكون جزءاً منه،

خطأي لا يغتفر في حقك، وفي حق انتماء. انتماء التي تزوجتها وأنا أدرك أنها لن تصبر معي في طريقي الذي أريده.

فتاة رأت في شخصي رجلاً متعلماً مثقفاً يمكنه أن يساير شؤون حياته ويخلق لها حياة زوجية مثالية طالما حلمت بها، وتفاجأت بواقع مرير، كله أنانية ولاءات لا تنكسر أمام عزيمتها وأحلامها.

كان عندكِ مبرر للقبول بحالتي كيف كانت، عايشتني وخبرتي طباعي، تحملت لأجل استقرار أسرتنا، أما هي فلم تستطع الصبر على سلوكي الذي صدمها، فلجأت إلى الطلاق لتنجو بسلامتها من نرجسيتي.

أيقظتني من غفلتي يوم وقفنا أمام القاضي للبت في قرار الطلاق، بكت قهراً من الحال الذي أوصلتها إليه، ندمت على الزواج مني، استصغرتُ نفسي، ما ذنبها حتى أوصلتها إلى هذا الحال.

جاءت للمحكمة بمفردها، منكسرة، أشقاؤها في أشغالهم منشغلون عنها، آخر هم أحدهم مصلحتها أو مصيرها، أمها مريضة لا تقدر على التنقل وشهود مثل ذلك المواقف، كم كُنتُ قاسياً عليها، ليتها لم تقبل ذلك الزواج.

خرجتُ من المحكمة متلفظاً بكلمة بغيضة فرقتنا، وتركتها ورائي في المحكمة جالسة على مقعد الانتظار، لا تنتظر من يواسيها بقدر ما تنتظر أن ينجلي عن نفسها الأسى، لا تنتظر من يأخذ بيدها ليصحبها إلى

بيتها وهي في حالة ضـعف وانكسـار بقدر ما كانت تنتظر أن تحملانها قدميها لتخرج من المحكمة.

اعلم أن كلامي وشـفقتي على حال انتماء قد يثير غيرتك، وأعرف أنك أكثر مني شـفقة على مصيرها، وأظن أنك تتسـاءلين لماذا أقدمت على هذا الزواج وأنت تعرف أنك لن تستمر به؟ أو على الأقل ستصطدم فيه مع رغبتها بالإنجاب، وأنت تدرك أن طموح كل زوجة أن يكون عندها أبناء.

لماذا لم تقبل فكرة أن يكون لكم أبناء؟

أولم يكن ذلك أخف من مصيبة الطلاق؟

أتوقع منك ذلك.

لا أنكر أنني تسرعت في الزواج بها، وأنني ما شعرت بذلك إلا عندما طلبت منها أن تلتحق بدراسة الماجستير، ساعتها شعرت أنني أريد منها أن تكون صديقة وعشيقة أكثر منها زوجة.

أردتها أن تكون ظلاً لي في المجتمع، أردتها أن تكون متفرغة لي تماماً، لا يشاركني فيها أهل ولا ولد، وحين مضت الأيام، أيقنتُ أنني لا يمكنني أن أعيش حياتي هكذا، ولن تكون هي على استعداد لهذا السلوك كل حياتها، حينها بدأتُ أختلق المشاكل للتخلص من هذا الزواج.

لا أخفيك أنني نادم على إيذائي لها، لا أخفيك أنني أشـعر بالنقص والخجل من سـلوكي معها، نعم ظلمتها وليتني أستطيع التكفير عن هذا الذنب، وإنني أرجو لها أن تنعم بحياة فاضلة تعوضـها عن سوء عشرتي لها، أما أنت زوجتي الحبيبة، ليتك تتجاوزين هذه التجربة من حياتنا بسلام.

قد تتسـاءلين لماذا الآن أفتح هذا الجرح وقد مرت شـهور على طلاقي لانتماء!

أقول لك: إنها تأتيني في أحلامي كل ليلة منثورة الشـعر، تزحف على الأرض وكأنها مشلولة الأطراف، وتقول: عند الله تلتقي الخصوم.

انتماء

أبواب الأمل

مع دخول الدقيقة الأولى من يوم 21 شباط، وضعتُ هاتفي على المنضدة جانب سريري، أردت أن أُسلم نفسي للنوم، غشيتني حينها الخواطر، لحظات سعيدة بدت تقفز من أعمق أعماق ذاكرتي، أيام الطفولة والشقاوة، أيام الفرح والسعادة، تصحبني فيها أريام، مرة تحميني من أقران الطفولة، ومرة تضربني وتراضيني، تنتزع من يدي لعبتي، أبكي تقبلني تعيدها لي.

استعدت ذكريات الدراسة الابتدائية ما فيها من لطف ورعاية.

الإعدادية وما فيها من صبيانية ومراهقة.

الثانوية وما فيها من خوف وقلق.

الجامعية وما فيها من أحلام وأمل.

سنوات العمل وما فيها من جهد وتطور.

انقطع من شريط الذكريات آخر عامين ونصف من عمري. مر سريعاً، فوجدتني باسمة هادئة، استعدت عافيتي، واستقرت نفسي، كدت أقفز من سريري متعجلة الصباح؛ لأبدأ حياتي من جديد، لن انتكس على روحي وأعيش في قيود الحزن والألم والندم.

إنها الحياة هبة الرب، تستحق أن نعيشها، نختلق ساعات الفرح، نكابدها تغلبنا ونغلبها، لا حزن دائم لا هم عصي.

سأتجاوز كل ما يقلقني، سأقفز فرحاً حتى ساعة الألم، لن أستسلم لليأس، لن أتركه يأخذ من حياتي لحظة واحدة، لن أجعله يهزمني، سأتخفف منه، سألقيه وراء ظهري.

سأعيش لحظات حياتي في صفو، سأعيشها في أمل ينمو كل يوم، يأخذني معه إلى رحابة العيش، ويُحلق بي عالياً إلى نشوة المرح.

تجربة اليأس التي نغصت حياتي لن أجعلها تتكرر.

أنا اليوم ولدت، وفي مثل هذا اليوم ولدت، يومها كنت آخر العنقود، واليوم أنا الجذع الذي تستند إليه والدتي.

بعد فراق الأحبة في غربة الزمن، بعد ركضهم وراء أحلامهم وأمانيهم، ليس لها سواي، ليس لي سواها، لن أجعلها تشعر أن صغيرتها مصدر حزنها ومحل قلقها.

سأجعلها تشعر بأن هذه الصغيرة التي لم تكبر في نظرها، أقوى أبنائها، سأجعلها تدرك أن هذه الصغيرة أقوى من الصعاب، وأنها مصدر قوتها وعزيمتها.

لم يحالفني الحظ في الزواج، وإن كانت تجربتي فيه مريرة، لكن لن أكون امرأة مُطلقة مستصغرة في عين الصاغرين، سأكون عنقود العنب،

ســأقلب ميزان الدنيا لأعيش كما أحب، ســأعيش مبادرة، لن أقبل رداء الضعف والشفقة.

حسمت أمري!

سأجعل من تجربتي في الحياة مصدراً للقوة والعزيمة.

لن أسمح لعيني أن تدمع.

لن أسمح لوجهي أن يعبس.

أمي معي في هذه الدنيا لن يكسرني المستقبل.

سأعيش حياتي ساعة فرح وساعة سرور.

سأرمم كل ما انكسر في نفسي.

سأواجه هذا العالم.

ســأعود انتماء ســأعود أُرْجُوان الأرض، أُرْجُوان البحر، أُرْجُوان الأمل.

آه منك يا هاتفي، لماذا تســمعني تنبيهك الآن، لو تركتني في فضــاء روحي، علني أتعافى من سقام نفسي، وأغسل ما علاها من حزن وكآبة.

ليتك ما اسـتقبلت هذه الرسـالة، ليتك اسـتقبلتها مكرهـاً في وضـعك الصامت.

سأجازيك بالتجاهل، لن أمد يدي إليك، سأتركك حاملاً ثقلها حتى الصباح، لن أقرأ ما حمل الأثير عبرك، سأتركك، سأنام، أتعجل الصباح، فقد انسلختُ عن انتماء الأمس، وجئت بانتماء اليوم، لا حزن ولا كدر، لا أسى ولا قلق، انتماء السرور والسعادة، انتماء التفاؤل والأمل، تصبح على خير هاتفي، وفي غدٍ لنا لقاء.

آصف
أُرْجُوان

مع دخول الدقيقة الأولى من يوم 21 شباط تناولت هاتفي الذي كنت أضعه على المنضدة جانب سريري، بدأت أقلب صفحات المواقع الإلكترونية، ومواقع التواصل الاجتماعي.

لا تطلب عيني النوم، ولا جسدي فيه من التعب ما يفرض عليه الرقاد، لا رغبة في القراءة، ولا رغبة في السهر، روحي تطلب ما لا أعرف، تتقافز مني مشاعر السرور ولا أدري ما يعتري نفسي.

زوجتي ترفع رأسها تارة تقول: لِمَ لم تنم، تجيبها شفتاي بتبرم وتعود لنومها، سالية روحي في هذا الهدوء، وكأنها تترقب خبراً أو تستطلع حدثاً.

نهضتُ من فراشي، تناولت مسودة روايتي التي احتار في اختيار عنواناً لها يتضمن تصوراً شاملاً يستوعب تعدد شخصياتها وتباين أفكارهم، روايتي التي نظمتُ سرديتها من وحي الخيال، الخيال الذي اجزم أنه ظل الحقيقة.

أحاكي فيها واقع الحال، وأنقل فيها تجربة معايشتي لشخصياتها، واختلاق معاناة كل منهم، في هذا الصخب من الخيال وجدت روحي متعلقة بأُرْجُوان.

أتمنى أن أعبر لها عن..... لكن يتسع صدري لحفظ هذا السر عن لساني، واستعيذ بالصمت منه.

أخاف من مصير الدكتور.

وأخشى من علاقة صداقة كالعِلاقة بكساندرا.

خاطبتني روحي قائلة ولدت أُرْجُوان لتكون..... رد عليها عقلي قائلاً تريثي، إلى أين تذهبين به، من هذا الذي تريدينه..... لأُرْجُوان، هذا الرجل لا يصلح لها، ولا تصلح له، أُرْجُوان صديقة قريبة من الروح، أُرْجُوان خلقت لتكون كذلك فقط.

ارتسمت على وجهي ابتسامة مفاجئة لحظة إدراك أنني في ساعات الفجر من يوم 21 شباط، هذا يوم عيد ميلادها، عدت إلى هاتفي أخذت أبحث عن مقطع يصلح أن يكون رسالة تهنئة في هذه المناسبة.

لم أجد.

بل وجدت.

ولكن ما وجدته منقولاً مكرراً مستهلكاً، لا يليق بها.

عدت إلى هاتفي، سراً أودعته ذاكرته في وقت سابق، وجدتها رسالة نصية كنت قد أعددتها لإضافتها في متن الرواية، لكن منعني ترددي في

إضـافتها، تركتها مخزنة في ذاكرته، اسـترجعتها فهذا يوم حاجتها، هذه ساعة مناسبتها:

"العزيزة أُرْجُوان في هذه الليلة التي تمزق فيها رياحُ شـباط سـكون الليل، أتذكر مناسـبة عيد ميلادك. العزيزة أُرْجُوان كل عام وأنت بنشـوة من السعادة تغمر أيامك. العزيزة أُرْجُوان هذا عام جديد في رحلة الحياة، لا تدعيه يمر من غير أن يكون حافلاً بما يسـعد النفس ويقوي عزيمتها، العزيزة أُرْجُوان اسمحي لي أن أُطلق على روايتي اسم أُرْجُوان. عزيزتي سامحيني لن أنتظر ردك، سأغلق هاتفي، لأذهب وأدبج روايتي باسمك، تحياتي وأشواقي ومحبتي الخالصة: آصف".

آ والله، تمضـي الأيام كأنها أطياف تلامس الروح، تترك خلفها أثر التجارب الشخصية كندوب لا تُرى، لكنها تُحسّ، تتبدّل الوجوه، وتتغير القناعات، وفي عمق هذا التحوّل، تنعكس ملامح أخرى للذات، أشـدّ صـلابة وأعمق فهماً، ففي كلّ تغيّر حكاية، وفي كلّ انكسـار ولادة هادئة لتجربة جديدة تحت رماد البدايات.

بعد أن ترجمت كاسـاندرا الرواية التي كتبتها أُرْجُوان (أوتار الروح) أرسلت لي رسالة قالت فيها: لن أتنبأ بشيء عن مستقبلك فأنا أعلم أن لا أحد يصـدقني، لكن. أقول: أنتم تتحدثون كثيراً عن الأخلاق، لكن لا تعيشـون الحب بصـدق، تعتقدون أن ضـبط النفس فضـيلة، وأراه أحيانـاً مجرد جُبن.

قرأت روايتها فوجدتك بين سطورها وفاعلاً لكل أحداثها وإن كنت متخفياً في عباءة ابن برخيا.

وقرأت روايتك فوجدتها حاضرة حضور الهدهد في قصر بلقيس، عزيزي آصف: لا أحد يكتب عن امرأة هكذا إلا إذا كان مأسوراً بها. وأنت متورط حدّ الصمت.

البوح الأخير

آخر ما باح به قوله:

لم تنقطع علاقتي بأُرْجُوان وأســرتها مذ عرفتهم، كانت تعرف أنني أراها من بعيد، وأطمئن عليها من كلمات غير مباشرة، ورسائل لم تُكتب بصــيغة الحنين، مرّت شــهور بعد طلاقها من الدكتور، تزوجت أُرْجُوان من رجل وَضعتَهُ في طريقها، أثق أنه خير من يُكنِفها ظله، احتفلت عائلتها بها.

وصلني الخبر ـ الذي كنت أعرفه بل صانعه ـ من أريام برسالة قصيرة جداً، قالت فيها: "اليوم زُفّت أُرْجُوان. ابتَسَمت كما لم تبتَسِم من قبل".

ابتَسمتُ أنا الآخر.

يكفيني أن أبتسم كلما مرّ اسمها.

في رســالة تالية قالت أريام: كل عروس عند مغادرتها بيت أهلها وذهابها بيت زوجها تأخذ جهازها معها، إلا انتماء، أخذت كتابـاً من مكتبتها! كانت تقول: هذا كل ما أحتاجه، وهذا كل ما بقي لي منّا.

آه، يا أُرْجُوان.

كلنا نكبر بطريقة ما، وأحيانـاً حين نكبر، نتعلّم أن ما لم يحدث، كان الأجمل. آ والله.

لهذه الأرواح التي مرّت فينا، وسكنت، ثم رحلت: شكراً لأنكم جئتم، شكراً لأنكم أضأتم شيئاً فينا، لأنكم جعلتم منّا أُناساً أكثر صدقاً، وإن كنا نُخفي ذلك عن العالم.

في كل مرة حاولتُ فيها أن أضع حداً لهذا الشعور، وجدتني، أكتب عنها دون اسم، دون ملامح، كنت أُخبئها بين السطور، وفي هوامش دفاتري، وفي أعين شخصيات لا تعرف أنها وُجدت لترويها، وحين يسألني أحدهم: "عمن هذه الكلمات؟"، أبتسم، وأقول: "عن فكرة".

قالت لي كاساندرا في إحدى رسائلها: الرجل الشرقي لا يفهم الحب إلا حين يفقده.

تُرى، هل كنت كذلك؟

لا أعلم

لكن إن سألني أحدهم يوماً: هل ندمت؟ سأقول بهدوء وتأمل في الماضي: لا، لقد أحببت، وأفصحت عما يدور في خاطري بكل حرية واتزان، وإن جاء حديثي في بعض الأحيان على لسان سيلين الطبيبة النفسية التي لم تكشف سراً عن مريضها.

ولما كان البوح الأخير لها قالت:

أنا "أُرْجُوان" كما ناداني، وربما كما رآني، لم أكن أعلم أن الحياة قد تكتبك بقلم غيرك، وتتركك بين السطور.

من أنا؟

هل كنت انعكاساً لعينيه حين رآني صدفةً في مكتبة؟

كنت أظن أنني أعرف نفسي تماماً، أنني تلك الفتاة التي تحفظ نظام يومها، تضع حدوداً واضحة بين قلبها والعمل، بين الحلم والممكن، لكن ظهوره جعلني أكتشف مساحات جديدة في داخلي، هشّة، نابضة.

في لحظة أصبحتُ بطلة رواية، مجرد وقوفي بجانبه، دون أن نقول شيئاً، أعاد تشكيل فكرتي عن القرب، عن اللغة، عن المشاعر التي تصيب الروح لا الجسد، لم أكن أبحث عن عِلاقة، بل عن تفسير لإحساس نبت فجأة، وتكاثر في داخلي.

لم يكن بيننا شيء يُقال صراحة، ولا مساحة تُعلن فيها نوايا، لكن الكلمات بيننا كانت كافية لأن تصنع مدّاً خفياً، وأكتب دون أن أقصد، لكنني لم أستطع أن أضع اسمه في قائمة "الزمالة" كما هو حال كثير من الزملاء الذين عرفتهم وتعاملت معهم.

كان مختلفاً.

وأنا لم أكن سوى أنثى تعثرت بحنين لم تتعرف عليه من قبل، وكنت أعلم أن الحكاية لن تكتمل، وأن السياقات أكبر من مشاعر صغيرة، وأدركت أن بعض الأحاسيس لا يُشترط أن تكتمل كي تترك أثرها.

تعلمت أن الحياة لا تقيس صدق العِلاقات بطولها، ولا بنهايتها، بل بقدرتها على أن تتركنا أفضل، وأن الحب لا يُلزمنا أن نحصل على من نحب، بل أن نفهم لماذا أحببناه، وماذا أيقظ فينا.

أنا "أُرْجُوان"، ولست نادمة على شيء، لأنني في لحظة صدق، اكتشفت كم كنت أحتاج لأن أشعر.

في هذه الرواية كانت التجربة، لا نهايتها، وربما لهذا السبب لم أعد كما كنت.

رزقت ابناً أسميته فيصل، ليبقى كل من يعرفني يناديني بأم فيصل؛ لأنه يكنى أبا فيصل.

هنا وقف بنا الزمن

انتهت الرواية

ولم ينته الشوق ـ على أي حال ـ ضُمِّدَ جرحٌ لن يندمل.

Dr. Kayed Al-Rkibat

ORJOWAN

الرواية

في رواية أرجوان، لا نقرأ قصة حب بل نعبر خيطاً رفيعاً من الشعور بين قلبين لم يتصافحا، إنها سيرة وجدانية تمشي على شفير الصمت، وتغزل خيوط الأمل من نظرة في مكتبة، أو فنجان قهوة على طاولة عمل، لا بطولة خارقة، ولا نهاية ضاجة بل إنسان يحاول أن يظل إنسانا وسط ضجيج الواقع والمعقول.

هذه رواية عن الذين أحبوا من بعيد وتراجعوا من قرب، ووقفوا على الحافة بين الحلم والواجب.

هذه ليست رواية حب، بل رواية الوفاء للصمت، لحظة التأرجح بين ما نشعر به، وما يجب أن نبدو عليه.

هنا، حيث تحضر أرجوان في كل سطر، وتغيب كما تغيب الشمس على من ينتظر الصباح، نعرف أن بعض الظلال كانت دوماً تبحث عن نورها دون أن تقول: "إن الخيال ظل الحقيقة".

الراوي



الدكتور كايد الركيبات باحث أردني مستقل في مجال الدراسات التاريخية والسياسات المعاصرة.

ولد في عمان، يقيم في قضاء المريغة بمحافظة معان، حصل على درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ من الجامعة الأردنية، نشر عددا من المقالات في دوريات علمية محكمة.

,كتب كثيرا من المقالات في صحف ومواقع إخبارية، تناولت مواضيع اجتماعية وإنسانية متنوعة وكتب العديد من القراءات الانطباعية في فن الرواية والقصة القصيرة.

في مجال التأليف له ثلاثة كتب منشورة هي: "الفكر السياسي للحركة المهدية في السودان" و"نظريات إقامة الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر"، و"الفساد الإداري والمالي: مفهومه وآثاره وطرق قياسه".

دار الأيام للنشر والتوزيع
عمان - شر. الملك حسين - وسط البلد أول طلعة
جبل الحسين - بجانب سرفيس جبل الحسين خط 9
ص.ب925636 - العبدلي 11190 الأردن
هاتف: 4633362 - 6 - 00962
جوال: 707630 - 795 - 00962 - 509925 - 797 - 00962
E-mail: salah_tellawi@yahoo.com
alayamdar@gmail.com

ISBN:978-9923-52-277-6
9 789923 522776

#القدس_عاصمة_فلسطين
Jerusalem, Capital of Palestine